


الكتاب العربي السعودي ٧٨

أحمد السباعي

أيامي

الطبعة الأولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
جدة - المملكة العربية السعودية

أيامي

للكاتب الأديب

أحمد السباعي

رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا [الإسراء :24]

صدق الله العظيم

إهداء

إلى:

من جهل أثر التربية العالية في إعداد الجيل!!

إلى:

من ظن النجاح في أساليبها القاسية.

أهدي كتابي

إنها (أيـامــي)

قدمتها في الطبعة الأولى والثانية تحت اسم:

(أبو زامل)

كنت أردتها رمزية يمثل بعض فصولها جانباً من حياتي وتعطي بجوانبها الأخرى صوراً من حياة الجيل الذي عشته.

ولكني رأيت اليوم وفي الطبعة الجديدة أن أتوسع فيما يلم بحياتي إلى جانب ما عرف من سمات الجيل فتعين عليّ أن أنسى أبا زامل وأتقدم إلى القارىء بقصة (أيامي).

في الكُتَّاب

سمّاني أبي ((أحمد)) ودللتني أمي فكانت تناديني ((أحمد حماده)) وكانت أغنيتنا الدائمة وهي ترقّصني– ((أحمد حماده لب القلادة أمه تحبه وأبوه زياده)) .ولا أزال إلى اليوم أذكر أني كنت دلّوعها كما أذكر كلمات الأغنية التي ظلت تدللني بها إلى الأيام الأولى التي كنت أدلج فيها إلى الكتَّاب.

وشاركها أبي في تدليل طفولتي الأولى لأنه رزق بي في سن اليأس ولعله عقد على رأسي آلاف الآمال والأماني.

ودرج بي إلى الكتّاب في زقاق الشيش بجوار المدعى؛ ولم يتركني حتى أضاف إلى جعل الفتوح قرشاً زائداً للفقيه، ورجاه أن يُعنى بي، وألا تأخذه خشية في تربيتي)) ..فاللحم لك يا سيدنا (يعني لحمي أنا) والعظم لي.. أنت أكسر يا سيدنا وأنا أجبر ((ولم ينس شأن العريف فقد كانت للعرفاء في كتاتيبنا صولة، وكان أحدهم لا يتسامح في حدود دولته مع الصبيان إلا لمن يعترف بحقوقه في الكُتَّاب ويعرف كيف يسترضيه، ويقدم (هللاته) القليلة التي ينفحها إيّاها والده في كل صباح ليشتري بثمنها من بضاعته الفجة (فوفلة جنجاوي)، واحدة.. أو قطعة من (طبطاب الجنة)، وكلتاهما نوع من الدقيق المحمر بمسحوق السكر.

لم ينس أبي شأن العريف فقد أسرَّ إليه بما أرضى كبرياءه، ودس في جيبه ما أطلق لسانه: (روح يا عم صالح، الولد ولد سيدنا.. وأنا هنا ما أشوفه إلا زي أخويه الصغير)

ولقد كان عند وعده فقد شافني بما يشاف به الأخ الصغير الذي سلبت إرادته، ومنح قياده إلى وصي يعرف كيف يعد هللاته القليلة التي يصطحبها كل صباح، ويتولى حجزها لقاء (فوفلة)[1] أو قطعة من (طبطاب الجنة).

أما فيما عدا ذلك فقد كان يكفيه أن يضيفني إلى (بشكة) من أندادي المبتدئين، وأن يهيب بنا لنحاكيه فيما يقول، ونردد حروفه التي يلفظها (أليف لاشيون عليها.. والباء واحدة من تحتيها) [2] ، في نغم مرتل وأصوات ممدودة عالية.

وكان أبي قد حفل بما يلزمني للكُتّاب قبل دخولي إليه فاشترى لي لوحاً كانوا يعدونه كخشبة مربعة الجوانب يزين رأسها مدرجان ينتهيان إلى رأس كعرائس الخشب يثقبونه، ويربطون به خيطاً متيناً يحمله الصبي في يده، أو يلوح به اللوح إذا شاء العبث.

ولم ينس أن يزودني ببعض (المضر) الذي كانوا يذيبونه بالماء ويمسحون ما كتبوا في الألواح؛ ليستأنفوا كتابة أخرى كما لم ينس أن يزودني بجزء (عم). وكانوا يطبعونه على قاعدة يسمونها بغدادية ويستفتحونه بحروف الهجاء، والأبجدية، وجميع ما يتدرج فيه الطفل لينتهي إلى قراءة الفاتحة، ثم ينتقل إلى

(1) – قلت (الجامع لمقالات الاستاذ السباعي) : (الفوفل) هو حلاوة من قُشار معجون بالسكر أو سكر معجون بالدقيق ، كما ذكر المؤلف رحمه في كتاب (أوراق مطوية) ص 332/ من تجميعي ، أما (طبطاب الجنة) فهو نوع من الحلوى الشعبية تصنع من السكر المحروق والدقيق.
(2) - عليها، تحتيها تقرآن بالإمالة.

باقي السور ليختمها بسورة (عم يتساءلون).

ولعل أبي كان يتخيل لفرط تشوقه أن (أفك الحرف)، في أقصر مدة يستطيعها حزم الفقيه الذي وهب له لحمي، وأمره أن يكسر عظمي وكانت ثقته في عريفي بالغة الخطورة.

ولقد كان سيدي الفقيه حازماً بكل معاني الحزم الذي يفسره أبي؛ لأن الحزم الذي يعني التبصر في الأمور كان لغة لا يرقى إليها إلا الندرة من آباء عهدنا الذي ندرسه ومعلميه.

كان الحزم لا يتناول في حياتنا إلا لهب الظهور والأطراف بالعصى الغليظة والحبال المفتولة، وكانت (الفلقة) في الكتاب جزاء له قيمته العالية في تربية الأولاد وتحفيظهم، وكانت القاعدة العامة في الكتاب والبيت: (رَبِّ ولدك، وأحسن أدبه.. ما يموت حتى يفرغ أجله).

أولئك آبائي عفا الله عنهم؛ فقد فطروا على ما اعتقدوا خيراً؛ ونشأوا على ما ظنوه حقاً. فقاسوا لأنفسهم من المعاناة ما لا يحتمله جلد، وأذاقونا من بأسهم ما كلت به أجسادنا الصغيرة.

(1) محظوظون في الكتَّاب

وكنا في نظر فقيه الكتّاب أوزاعاً؛ تتنوع حقائقنا بتنوع قيمتنا الاجتماعية، شأننا في ذلك شأن الناس في نظر الحياة كما بلوناها فيما بعد.

كان فينا المحظوظ بمركز أبيه، أو غناه، أو نفوذه الشخصي، وكان بيننا (الغلبان) لفقره أو يتمه أو ضعف شخصية أبيه.

ولم يكن لي من مركز أبي، أو غناه في الحياة ما يؤهلني للحظوة، كما أني لست معدوداً في اليتامى أو رقيقي الحال؛ لأن أبي كان أغنى من فقير وكان قد خصني بعبد اشتراه لخدمتي، واصطحابي إلى الكتَّاب، ولكني كنت ونفر من أندادي لا نبتعد كثيراً عن مجموعة (الغلبانين)؛ لأن أولياء أمورنا كانوا من أصحاب البأس الذين وهبوا لحوم أولادهم للفقيه. أما عظامهم فله أن يكسرها وعليهم أن يجبروها. فلا غرابة إذا أضافنا الكتَّاب.. فقيهه وعريفه إلى قائمة الغلبانين.!!

كنا نصطفى لكثير من الخدمات؛ فمنا من يكنس الكتاب، ومنا من ينظف المرحاض، ومنا من يحمل الماء إلى مركن المضر حيث تمسح الألواح، ومنا من يملأ (شربة) سيدنا، ويبادر فيسقيه وعريفه إذا عطشا ومنا من تخصص للمروحة إذا اشتد الحر على سيدنا، أو يدلك رجليه إذا احتاجتا إلى (التكبيس).

كنت أشارك في بعض هذه الخدمات أو أكثرها، لأن سيدنا كان لا يدين كثيراً بمبدأ التخصص وكان يميزني ويختصَّني برعاية بالغة في بعض الأحيان فيسلمني نعاله لأمضي به إلى العم جابر الخراز في رأس المدعى وأبقى في جواره في انتظار الفراغ من تسميره، أو يبعث بي إلى أمه في دارها أحمل إليها (زنبيل المقاضي) وأقضي وقتاً غير يسير عندها أعاونها في غسل (الصحون) والأطباق؛ وأعنى بطفلته الصغيرة عندها.

وكان يصل إلى علم والدي بعض ما أعانيه في الخدمة فلا يعيره ما يسمع؛

لأن مبدأ (من علمني حرفاً صرت له عبداً) عقيدة لا يصح التهاون فيها عنده، ولأن الفتوح في رأيه رهين برضاء الفقيه؛ ورضاء الفقيه كائن ولا بد في التوافر على خدماته وتسمير نعاله.

فليت الآباء يعنون في كل زمان بتمحيص أمثال هذه الحقائق، ويتفهمون معاني الإغضاء عن كرامة صغارهم، ويعينونهم ما استطاعوا على بناء شخصياتهم، وإقامتها في اعتدال موزون.

وكنا جماعة (الغلبانين) في الكتَّاب عرضة للظروف الحرجة التي (تتنرفز) فيها أعصاب سيدنا، فإذا أخل أحدهم بنظام الجلوس، أو شاغب جاره وسرت العدوى إلى من يليه فثار اللغط واشترك الصبية في زوبعته (تنرفز) الشيخ، وتوترت أعصابه وشرعت عصاته تلهب أول ظهر يصادفه من ظهور الصبية.

ولا تجهل العصا طريقها إلى ظهور الغلبانين لأن اليد القابضة عليها –يد سيدنا– تعرف من معاني الكياسة والحزم مالا تعرفه كل كتب التربية الحديثة.. فهي لا تجهل أن لمس المحظوظين بأهون ما يكون به لمس العصا يثير مشاكل لا قبل لسيدنا بها، وأن في ظهور الغلبانين ما يحفظ هيبة الكتَّاب. وفي أطرافهم ما يشفي غيظه في جو آمن من العواقب الخطيرة.

قلت مرة: يا سيدنا –هذا ولد العيدروس وولد الصافي يجرون خلفي في الأسواق ويصيحون. (دول مين.. دول مين.. دول نصارى ولاّ يهود.. كشوا عليهم بالبارود)، قلت له ذلك وأنا أجهش بالبكاء من فرط ما نالني من الألم، فنظر الشيخ إلى دموعي مرة وإلى خصومي –وكانوا من الفريق المحظوظ– أخرى، ثم رأى أن من الكياسة أن يتصرف في حزم وأن ينسى المخطئين وأخطاءهم، وينتزع من هذا الغلبان ما يحقق عليه الجزاء والعقوبة.

قال: أعد ما تقول فرحت أعيده في براءة الطفل.

(دولا مين.. دولا مين.. دولا نصارى ولاّ يهود.. كشوا عليهم البارود) فما ملك أن تصنع الغيظ لتبجحي في ترتيل مثل هذا القول على مسامعه وشرع ينهال على طرف من جسدي بخيزرانته اللدنة حتى ترك أثرها واضحاً في كل عضو مني.

ولكنه أبي في النهاية إلا أن يكون منصفاً في حدود ما يفسره من معاني الإنصاف، فقد التفت إلى خصومي بعد أن تركني في شبه غيبوبة، وأهاب بهم. (يا واد ما تقعدوا عاقلين إنت وهو!!).

عفا الله عن كتاتيبنا وأشياخها، فقد كانوا معذورين بعدوى العصر الذي يعيشون فيه، وقد تركوا أثرهم في جيلنا مستعصياً على كل المحاولات التي يحاولها العلم بما ينشره من ثقافة فعسانا لا نورث أخلافنا مثل هذه العدوى.

(2) أبجد –هَوَّز

ولا أدعي أنني كنت أضيق كثيراً مما ينالني من عسف الكتَّاب؛ لأن تفكيري كان لا يتسع لإدراك ما أدركته فيما بعد.

أما نصيبي من خدمة الفقيه في الكتاب، أو السوق أو البيت فكان يصادف في نفسي هوى.. كان لي بمثابة استجمام أستمتع فيه بما لم يتهيأ لي مثله وأنا مكب على تلويح رأسي بين الصعود والهبوط في زمرة أندادي ونحن نصيح على وتيرة واحدة)) أليف لاشيون عليها.. والباء واحدة من تحتيها ((وأبصارنا عالقة في خطوط رسمها العريف في ألواحنا، لا ندري منها مكان)) الأليف ((ولا نفهم منها معنى الشيون [3] الذي لا يكون عليها، أو الواحدة التي تكون من تحت الباء.

كنت أفرح (بزنبيل المقاضي)، أجعل معاليقه في يدي، وأطوّح به في الهواء طول الطريق إلى بيت سيدنا، وكنت أجد في غسل الأطباق، والعناية بولده الطفل، والذهاب بنعاله إلى عم (جابر الخراز)، فرصة لذيذة أقطع فيها الوقت بعيداً عن شخط العريف، ولسع خيزرانة الفقيه، والنظر إلى (الأليف اللاشيون عليها) في وجه اللوحة الكئيبة التي مضت عليها شهور عديدة دون أن يأذن العريف بمسحها (بالمضر) وكتابة درس جديد في مكانها.

ولا أريد أن أنكر بلادة فهمي وعصيانه على استظهار دروسي الأولى فقد كان ذلك عاملاً قوياً في ثباتي عند درسي الأول، وضعفي عند تخطيه إلى ما يليه.

إذا أضيف إلى هذا استغلالي فيما يقتل وقتي من خدمات الفقيه تبين مدى

([3]) ـ قلت (الجامع لمقالات الاستاذ السباعي) : الواضح أن المقصود : ألف لا شيءً عليها ، أي أن حرف (أ) يكون بلا نقاط ، بينما حرف الباء يكن تحته نقطة واحدة (من تحتها) ، ولكن الاستاذ السباعي يبين أن الطفل في هذه العمر كان يتم تحفيظه من غير توضيح أو شرح لمعنى هذه الكلمات .

طول المدة التي قضيتها في معرفة (الألف لاشيون عليها).

وكان الصبيان في ذلك العهد لا تتميز درجات تحصيلهم الدراسي بأرقام السنوات والفصول التي ينتمون إليها، فليس هناك سنة أولى أو رابعة، وليس ثمة فصل –(أ،ب)، وإنما الميزة الواضحة أن يُسأل الصبي عن السورة التي وصل إليها فيجيب: سورتي الْحَمْدُ وهو يعني الفاتحة، أو يقول: سورتي إِنَّآ أَعْطَيْنَاكَ وهو يريد سورة الكوثر؛ وبذلك يتميز محصوله العلمي في الكتاب.

وكان لا يسيء أبي شيء ما يسيئه سؤال الناس لي عن سورتي بعد عام كامل من دخولي الكتاب، فكنت أقول: إنها (ألف لاشيون عليها) دون أن أستشعر الخجل فيما أقول.

وظللت على هذا شهوراً من العام الثاني حين انتهيت من حروف الهجاء، وشرعوا يكتبون لي في اللوح شيئاً جديداً يسمونه (أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ).

ولم يرهق بلادتي شيء ما أرهقها هذا الدرس فقد كان يتعذر عليّ إخراج الحروف من مخارجها. وإني لأذكر اليوم كيف كان العريف يكرر أمامي (ثخذ ضظغ)، ضاغطاً على مخرج كل حرف منها، فلا يطاوعني النطق على تقليده، وتلتاث علي الحروف كما تلتاث على طفل يلوك الكلام ولا يحسنه.

ولطالما سألت نفسي –بعد أن استوى رشدي وبدأت أعقل الأشياء– عن الرابط بين الأبجدية الهوّزية، وبين الطفل البادىء في الكتاب فلم أظفر بما يفيدني في الأمر.

كنت أتساءل أهي كلمات عربية تؤدي مفهوماً خاصاً يتدرج فيه الطفل إلى ما بعده من دروس؟ أم هي رطانة أعجمية أقحمتها الكتاتيب لتضاعف من قيمة جهودها أمام زبائنها من أولياء أمور الطلبة؟ أم هي أسماء لنفر من الجن

الصالحين يتعين على الصغير استظهارها تيمناً بما فيها من صلاح أو بركة.

قلت هذا لستي [4] مرة وكانت شغوفة بترديد مثل هذه الكلمات على أنها أسماء لبعض ملوك الجان، وكانت تحفظ أسماء أهل الكهف، وكلبهم قطمير، ولا تفتأ تكررها وكانت تتحصن بها من العاديات!! قلت أسألها عن الأبجدية الهوّزية، وعلاقتها بتعليم الأطفال. فاستهجنت مني هذه الصفاقة وقالت (إحنا ناس كنا نسمع زي ما يقولوا الكبار)، ثم جمعت سبحتها بين كفيها ورمتني بها في وجهي في حماس ظاهر وهي تقول: (بكره تشوف آخر هذا الهلس اللي تهلسه على المشائخ والناس الكبار)، ولقد شفت والله ما قالت، ورأيت عاقبة (هلسي) فأنا اليوم أقاسي من المعاناة في التوفيق بين عقلي وبين ما ورثته من أرتال الخرافات ما لا يحتمله جلد.

واستطاع عريفي بعد هذا أن يضع يدي على رأي الكتّاب في الأبجدية الهوّزية فقد اجتمعت به بعد أن اكتهل، وكنت في زهو شبابي، وسألته، فقال لي: إن هذه الأبجدية تجمع حروف الهجاء وعددها 28 بالتمام والكمال. قلت: إن هذا لم يغب عني وأنا في هذا السن، بل أزيدك أني رأيت الأبجدية الهوزية باباً له قيمته في كثير من كتب السحر، وأصحاب الأوقاف الذين يحسبون بالمحمل الكبير وبالمحمل الصغير؛ ولكن المسألة لا تزال في رأيي في مكانها الأول لأني لم أفهم بعد علاقتي كطفل بهذه الرطانة!!

فلم يزد عن أن رماني بنظرة شزراء، أعادت إلى ذاكرتي (شخطاته) في الكتاب، وتركتني أحس برعدة خفية في أعماقي ثم تداركني لطف الله فقد ولاني ظهره وغادر المكان.

ودرجت في الكتاب بعد أن انتهيت من أبجد إلى دروس نسيتها وإن كنت لا

---

(4) - تطلق كلمة (ستي) في الحجاز على الجدة للأب أو الأم.

أزال أذكر أنني كنت أعيها بذاكرتي، وأحشوها في واعيتي دون أن أعرف مكان حروفها في اللوح إلا في القليل النادر. وكان عريفي حصيفاً لا تفوته (القراءة العمياني)، لهذا كان يبذل جهده في اختبار ما أقرأ، فكنت إذا انتهيت مما قرأته سرداً عاد فغطى بعض الكلمات في اللوح بكلتا يديه وكشف عن بعضها لأقرأها وحدها، ولكني كنت أكثر منه حصافة أو مكراً وتخابثاً –إذا شئت– لأني كنت أحفظ الكلمة من اللوح وأحفظ مكانها فيه فإذا غطى ما حولها بادرت بنطق الكلمة اعتماداً على موقعها الذي أعرفه؛ أما مفردات حروفها فكان لا يعلم إلا الله مبلغ جهلي الكامل بها.

وبذلك قضيت في كتاب زقاق الشيش نحو سنتين حشوت فيها واعيتي بالكثير الذي حفظته كنتيجة للتكرار المستمر، أما الحروف فلم أتبين من حقائقها ما يميزها عن بعضها، وأعني بذلك أنني (لم أفك الحرف) في لغة ذلك الزمان.

(3) (إصرافه) أو (إقلابه)

ولم تكن للكتّاب مساحات أثناء الحصص يستجم فيها الأطفال كما تفعل مدارس اليوم!!

كان الجد يطبع معلم الكتَّاب وعريفه بألوان من الصرامة لا تتفق مع الميوعة التي ابتدعت فيما بعد يوم أنشئت المدارس، ونظمت لها الحصص، وما يتخلل الحصص من الفسح.

لقد كانت فكرة الفسح في ثنايا الحصص بدعة استهول أمرها فقهاء الكتاتيب وعرفاؤهم، وراحوا يمطرونها نقدهم الساخر، ويُهزِّؤون بأصحابها هزأهم بالمجانين والعابثين.. وشاركهم في الهزء طائفة الأولاد الذين درجوا في كتاتيبهم على الاستخذاء لتقاليد الكتاب التي طبعهم عليها (سيدنا) وعريفه.

وشارك آباء الأطفال في موجة الهزء التي طغت في محيط الكتاتيب.. فقد كان الآباء لا يفضلون لأولادهم هذا العبث الذي بات يتجلى في انطلاق أولاد المدارس الجديدة بين ساعة وأخرى باسم الفسحة.. لأن بيوت التعليم ما خلقت في رأيهم إلا لتربط أرجل الأولاد. و (تحط عيونهم في الألواح) طيلة اليوم وتحفظهم من الهبهبة!! والجري في الشموس.!!

في سبيل ربط الأرجل والحفظ (من الهبهبة والشموس) كنا نقضي سحابة يومنا مقيَّدين بألواحنا لا نحيد عنها.. وكانت رؤوسنا لا تنفك صاعدة هابطة مع تيار النغم الذي يضبط العريف وحدته كما يضبطها المقدم في جوقة موسيقية.

وكان لا يطلق أَسْرنا من هذه الغمرة الشاقة إلا بعد أن ندّعي العطش أو (حصر الحاجة)، فينصب الصغير منا قامته أمام سيدنا جامعاً أصابعه أمام فمه استئذاناً بالشرب؛ أو يجمعها ويطلق البنصر للاستئذان بقضاء الحاجة فلا يتردد

سيدنا في الإذن إلا في القليل النادر الذي تشتد فيه (عكننة المزاج) أو يشعر فيه أن الطالب كثير (الزوغان.. لعَّاب!!).

ولا أنكر أني كنت من (اللعّابين) كثيري (الزوغان)، وإني كنت لذلك لا أحظى بإذن سيدنا إلا بعد لأي طويل.. ويبدو أني كنت قليل الكسوف لأن سيدنا كان لا يفتأ أن يرفض طلبي حتى أعاود الاستئذان قبل مضي لحظات.. فإذا أعاد الرفض أعدت الطلب.. وربما (شخط) في وجهي: (اقعد يا ابن الحطبة، والله منت خارج حتى تخلص تسميعك).. فلا يكسفني الشخط بقدر ما يثير عنادي (للخروج)، وربما استطعت في غفلة من سيدنا أن أتوجه بنظرة استعطاف إلى مقر العريف فيتطلع إلى مكان سيدنا.. حتى إذا وجده مشغولاً بغيري أشار لي بالسماح فأحفظ له الجميل؛ ولا أنسى أن أروج له في بيع (الفوفل) إذا حان وقت الانصراف.

وكان لبيت الراحة في الكتاب نظام نافذ المفعول.. فقد أناط سيدنا ببابه لوحاً من المقوى دلاه في حبل وكتب على أحد واجهتيه (فاضي) وعلى الواجهة الثانية: (مشغول)، فإذا أقبلت عليه وكان وجهه المكتوب (فاضي) علمت أن بيت الراحة غير مشغول، واستطعت أن تأخذ طريقك إلى داخله بعد أن تقلب اللوحة على وجهها الآخر (مشغول)؛ ليمتنع غيرك من القرب حتى تفرغ من حاجتك.

وكنت يومها لا أجيد قراءة ما في اللوحة ولكنني حذقت بطول الاستمرار الفرق بين الخالي والمشغول في شكل الكتابة ورسمها في اللوحة.

كنت ألج الباب إذا خلا وليس في حاجة إلى شيء إلا السأم الذي أتمنى أن أبدده.. ولا سبيل إلى تبديده إلا هذه (الشيطنة) التي أفتعل فيها الحصر.. حتى إذا صفقت الباب خلفي وقفت في حيرة لا أعرف ما أصنع.

كنت أقف وأعضائي تلح في طلب الحركة، وليس أمامي للحركة إلا مدى أضيق من مدى الثعلب المحبوس في قفص (السيرك)، فلا يلبث أن يعاودني السأم الذي فررت منه.

وتفتقت (الشيطنة) في بعض المرات عن ألوان من اللعب لها غرابتها.. وأني لأذكر إلى اليوم كيف كنت أصعد فوق (الحنفية) خزنة الماء في بيت الراحة وأتربع فوق غطائها الخشبي ثم أعمد إلى (المغراف) فأغمره في الماء حتى يمتلىء، ثم أوزعه في أركان (بيت الراحة)، ركناً بعد آخر كما يفعل بائع الشربة الذي كنت أراه في طفولتي يغمر ملعقته الكبيرة في قدر الشربة ثم يوزعها على أواني الزبائن في دكانه.

كانت طفولتي (المتشيطنة) تمثل لي أني هنا أبيع الشربة.. وأخاطب نفسي لأرد عليها بلا فرق بين بائع الشربة وبيني: (هات الفلوس يا ولد.. شيل قدرك يا أخينا.. خلاص أعطيتك الوصاية)، في كلمات صادرة مني وإليّ لو تهيأ لسيدنا أن يسمعها، أو يفتح الباب ليراني متلبساً بها لحكم بجنوني وتفضل فطردني من كتَّابه.

إنها خيالات صبيانية لا يكاد يسلم من أمثالها غيري ولكن الناس يأبون في الغالب الأعم أن يسجلوا على أنفسهم ما مر بهم من ترّهات الطفولة كما أسجلها على نفسي.

إنها خيالات صبيانية لا بد منها لتبديد السأم الذي يخيم على غرفة التعليم في كتَّاب سيدنا ولا يعرف مقدار ما أحسن منظمو الفسح في المدارس إلا من قاسى عناء القيود التي كانت تربطنا بألواحنا سحابة اليوم في اطِّراد لا يتخلله إلا شرب الماء أو قضاء الحاجة المستعجلة أو محو اللوح عند حافة المركن في حوش الكتاب.

أما المسامحات الصيفية التي ابتكرتها النظم الحديثة فتلك مباذل كانت لا تعرفها كتاتيبنا لأنها لا تعترف بأثر الصيف أو الشتاء في مجرى الدراسة.

على أننا كنا نظفر بضالتنا في المرح أيام الجُمع والأعياد، وفي مناسبات النجاح التي كان يحتفل فيها آباء الأولاد بصغارهم إذا بلغوا في الكتاب سورة الفاتحة؛ أو ختموا جزء عم يتساءلون أو تفوقوا عن ذلك بما بلغوا.

كان أولياء أمور الأولاد في كتاتيبنا يمنون فقيه الكتاب وعريفه بحفل مشرِّق، وفير الربح كبير المائدة إذا استطاعا أن يقدماه فيبلغا به سورة الفاتحة أو يساعداه على ختم (جزء عم)، وكان الفقيه أحذق من أن يفوِّت على نفسه أمثال هذه فما يكاد يتبلغها حتى يحرص على تنفيذها :((اصبر لي كمان غلاق الشهر.. وانت تشوف اللي يسر خاطرك في ولدك.. سامع يا واد.. والله إن كان ما تشطر.. بعدين اشنق العتبة واعلق الباب.. شوفني أقل لك هذا الكلام.. قدام أبوك!!)).

ولا يخلف سيدنا أمثال هذه الوعود فإن الشهر لا يكاد يوشك على الانسلاخ حتى يعلن الأب بتعيين يوم الحفل.. فقد أوفى الولد على النتيجة التي يطلبها أبوه بصرف النظر عن كيفية النجاح والطريقة التي يبلغ بها ذلك الأوج فقد كانوا رحمهم الله يستوحون (البركة) فيما يفعلون!! أكثر مما يتحرّون الدقة والجد.

كنا نسمي الحفلات (إصرافه) أو (إقلابه)، وكل مسمى منها يدل على لون خاص نسيت اليوم الفرق بينهما.. وأعتقد أن (الإصرافة) كانت تعني حفلاً بسيطاً لا يتجاوز حدود الكتّاب يحضره والد الطفل وبعض أقاربه ليستمعوا إلى قراءة الولد سورة الفاتحة التي بلغها في لوحه المنقوش يومها بالأحمر والأخضر.. حتى إذا انتهى من قراءتها أقبلوا يهنئون سيدنا على ما بذل ويقدمون له ما

سخت به أيديهم، ثم شرعوا يوزعون الحلوى على أولاد الكتاب.. حتى إذا فرغ الحفل صاح سيدنا في كتابه (فيدوس يا أولاد) و (الفيدوس) كلمة لا أفهم إلى اليوم معناها؛ ولكني كنت أعلم وأنا طفل أنها تعني الانطلاق من أسر الكتّاب طوال سحابة ذلك اليوم.

وتعني الإقلابة –إذا لم تخني الذاكرة– قلب الكتاب من قواعده الأساسية فلا (شخط) يومها ولا (نخط)، إنه يوم ممتاز نستعد له بـ (الجبب المقصبة)، والحزم المفضضة، والعمائم (التلى) و (النعل أبو خرزين) المحفوظ بعناية في قاع صندوق والدتي ينتظر المناسبات.

فإذا اجتمع الأطفال في أرديتهم الخلابة في كتاب سيدنا خرج عليهم سيدنا في ثوبه (الدرابزون) المطرز صدره وياقته بالحرير (الشيناوي) وصديره (المزرر) مما يلي لحيته، وجبته الفضفاضة التي لا ترى النور إلا في مثل هذه الأعياد!!، وعمته المكورة في جلال وأبهة؛ وطيلسانه الموشح بأدق أشغال الإبرة في كشمير.

ويشرع سيدنا في تنظيم الأولاد صفوفاً ينتقي في مقدمتها أصحاب (الجبب) اللامعة والعمائم الرائعة، ثم يشير إلى العريف ليمضي في مقدمة الصفوف إلى مكان الحفل في بيت صاحب (الإقلابه) ويهيمن بنفسه من المؤخرة على تنظيم الصفوف.

ولا تكاد صفوفهم تغادر الكتَّاب حتى تندلع أناشيدهم في أنغام جميلة يرتلون فيها أدعية وصلوات حفظوها لهذه المناسبات.

ويمضي الموكب في طريقه إلى أن يسامت بيت الدعوة حيث يكون زميلهم قد أعد نفسه لاستقبالهم على صهوة جواد زينوا سرجه بالقطيفة المزركشة؛ وأناطوا بعنانه الجدائل الحريرية، وكسوا جبهته بالخرز البراق وأحاطوا جيده بالفصوص اللامعة.. ووقف حوله حشد من الأقارب والأهل يسنده بعضهم على صهوة

الجواد ويحتفي البعض الآخر بموكب القادمين من الكتاب على رأسهم سيدنا بعد أن زحف إلى مقدمة الصفوف وأشار إلى العريف بتنظيمها.

وتنطلق أصوات المدعوات من خصاص النوافذ المغلقة (مزغرطات) في أنغام لا تنقطع من نافذة إلا لتتصل في نافذة أخرى وينهال رشاش الملح في تضاعيف ذلك من عليات النوافذ طرداً للشياطين، وحرزاً من عيون الحاسدين.

ولا يلبث الموكب أن يتحرك في جولة عامة يذرع بها أكثر الشوارع يتقدمه الطفل المحتفى به على صهوة جواده وقد احتضن لوحه المزين بالسورة التي بلغها فقلب من أجلها الكتاب انقلاباً أو (إقلاباً.. أو إقلابة) وتزحف الصفوف خلفه تهزج أناشيدهم الطريفة، والأصوات البريئة.. وتزدحم الشوارع بالمتفرجين على طول الطريق وعرضه.

ويظل الأمر على هذا حتى يستأنف الموكب عودته من جولة الشوارع إلى بيت المحتفى به حيث تكون الموائد قد مدت لاستقبال صغار الكتاب تحت رئاسة سيدنا ولا ينتهي الحفل حتى تكون جيوب سيدنا قد غمرت بما أتحفه أهل الصغير وغمر به بعض الأقارب.

تلك ألوان كنا نجد فيها متنفّساً من سأم الكتّاب.. كنت أتمنى أن لا تزول حتى يتفنن العصر الذي نعيشه في إحلال غيرها مكانها تبديداً لسأم الحياة التي تواتينا رتيبة لا تجديد في مناظرها ولا تنويع.

(4)خالتي حسينة

كانت خالتي حَسينة تسكن إلى جوارنا، وكانت من السيدات الصالحات المتخلفات عن بيوتات ممتازة في مكة.

فقد كانت مملوكة لأحد الأشراف، فلما أعتقوها زوجوها بأحد عبيدهم، وانتقلت معه إلى البيت الذي سكنته بجوارنا.

وكان عم محبوب (زوجها) رقيق الحال لا يملك من حياته إلا الكفاف الذي لا يغنيه عن أفضال الناس، ولا يمنعه من كدح زوجه في الحدود التي لا يصعب عليها الكدح فيها.

وكانت خالتي حسينة قد قرأت في بيت أسيادها الذي تركته ما كان يقرأه النساء في ذلك العصر.. قرأت المصحف إلى نهايته وختمته عدة مرات. ثم قرأت مولد البرزنجي وأتقنت ترتيله في أنغام لها حلاوتها في حفلات الموالد الخاصة بالنساء في ذلك العصر.. كما حفظت قصيدة البردة والهمزية عن ظهر قلب، وأصبحت بارعة في تجويد أبياتها كلما حفل بها مجلس.

وبرعت إلى جانب هذا في قراءة دلائل الخيرات وحزب (الجوشن)، وما لا أعرف اسمه من أوراد وأدعية أخرى، فكانت لذلك تعد من طلائع الطبقة المستنيرة بين أترابها وقريناتها!!

وكان من الطبيعي أن يستفيد الناس من خبرتها العلمية فيبعثوا إليها بصغيراتهم يتعلمن عندها القراءة، وبعض ما تيسر من القصائد والموالد التي كان يحرص الناس على تجويدها يومذاك.

فكان في بيتها ما يشبه الكتاب.. ولم يكن كتاباً كاملاً؛ لأنها لا تقبل جميع الطالبات، أما الطالبون من الأطفال فكانت ترفضهم خشية ((شيطنتهم)) كما تقول، وحرصاً على بنات الناس.

وكانت تعنى إلى جانب اشتغالها بالتعليم بنظافة بيتها المتواضع وتنسيق أثاثه رغم فقرها في صورة لا يزال جمالها مرتسماً في ذهني إلى اليوم، فقد كانت جل غرفها مفروشة بقطع كانت بسطاً قبل أن تتمزق أوصالها، ولكن خالتي حسينة استطاعت أن تحيل هذه الأوصال الممزقة إلى قطع مبوبة يستوي منها فرش تلمح فيه النظافة وتجمله طرافة التنسيق، أما الزاوية التي جعلتها مطبخاً، وأما البلاطة الصغيرة التي اتخذتها حماماً، وأما سائر الحيطان وجميع درجات السلم فما كانت العين تقع فيها على ما يوازي حبة الخردل من الوسخ.

ولا غريب في أمر خالتي حسينة فقد كانت أكثر البيوت لذلك العهد صورة طبق الأصل لما وصفناه في بيت خالتي حسينة وكانت رباتها لا يتنافسن في شيء تنافسهن في نظافة ما يلبسن، ويفرشن أو يطعمن فكن وكانت بيوتهن مضرباً للمثل في النظافة وجمال التنسيق.

وكانت خالتي حسينة قد أدركت بحكم جوارها لنا أن قراءتي غير صحيحة، وقبلت بصورة خاصة أن أوافيها بعد خروج البنات لتصحح قراءتي.

وما كان بيتها جديداً عليّ فقد كنت ألعب في دهليزها مع بنات كتّابها. وكثيراً ما كانت أمي ترسلني إليها في قضاء بعض الحوائج أو تصحبني معها في الأمسيات التي تسمر فيها عندها ولكن شأني اليوم كتابع مقرر لها غير شأني بالأمس!

شرعت تفرض قيودها: (لا تدخل يا واد حتى تلبس القبقاب وتوقف هنا تغسل رجليك ووجهك ويديك. أغسلهم من الإبريق، ولا تمسك المغراف وأنت عليك الوسخ قناطير!! أصبر يا واد.. خليك واقف فوق القبقاب حتى تنشف رجليك!!).

فكنت إذا أقبلت على بيتها، وصعدت الدرج، وقفت دون مدخل الغرف

حتى تفرغ من ترتيب الرف أو (دهن السموار) النحاس ثم تقبل على الإبريق فتملأه لي وتتركني أغسل أطرافي ولا تأذن بدخولي حتى يجف الماء من رجلي.

وإذا جلست للقراءة أمرتني بأن أضع (جزء عم) فوق كرسي خاص يكون زاوية منفرجة يستريح عليه الجزء، وأخذت بيدها ريشة نعام وبدأت تشير إلى الكلمة التي يجب أن أقرأها بعد أن تنطقها أمامي ضاغطة على حروفها.

ولم يكن أسلوبها في هذا التلقين خيراً من أسلوب الكتَّاب فالطريقة واحدة إذا استثنينا الريشة والكرسي المزدوج.

وما قضيت أياماً في درسها حتى ضاق صدري بخالتي حسينة وشعرت كأن حصتها جاءت ضغثاً على إبالة.. فهؤلاء زملائي في الحارة يقضون يومهم معي في الكتاب حتى إذا دنا العصر انطلقوا يلعبون (الكبت) في (برحة المروة)، أو (شرعت دندن) (أو الاستغماية) في خان السداري وقيدت وحدي إلى خالتي حسينة.. أكرر ما تلقنني في سآمة وملل.

ولم يفرح أبي لشيء فرحه بالتحاقي بخالتي حسينة.. كان يقول لأمي:

(دحين استرحنا من الهبهبة الكدابة، والجري في الأزقة، وشيطنته مع الناس.. دحين نقدر نقول بلكي ربنا هدى الواد واللي ينقص من الكتاب الفالصو تقدر تكمله حسينة.. هذه حرمة طيبة وإن شاء الله في وجهها الفتوح).

وكان أبي رحمه الله معذوراً فيما يرى؛ فقد نشأ أمياً، وتركت الأمية في نفسه شعوراً عميقاً بالنقص أراد أن يعوض في خلفه بأفظع ما تراءى له من ألوان التعويض.. كان يرى أن نجاحي وقف على المثابرة المستمرة التي لا تعرف الهوادة، ولا اللعب، ولا جري الأزقة :((إتوضأ يا واد وصل العصر واقعد اقرأ حتى تصلي المغرب.. وبعد المغرب إيش عندك؟ برضه اقرأ حتى تصلي العشاء وتأكل لقمتين وترقد تصبح حافظ))!!

وما علم رحمه الله أن برنامجه في المثابرة هو علة بلادتي وجمود ذهني، وأن الساعات التي أقضيها في الكتاب مكباً على (جزء عم) كانت أكثر من الكفاية للمثابرة، وأنه لا بد بعدها من انطلاقي إلى البرحة والأزقة لأشبع رغبتي في اللعب.. وأبدد ما اعتراني من سأم الكتاب، وأنشط ذهني لاستئناف الدراسة في أوقاتها المقررة في اليوم الثاني.

وما كان أبي في عهده إلا صورة للكثير من معاصريه الذين لا يرون في اللعب والجري تنشيطاً وتبديداً للملل بقدر ما يرونه مضيعة وشيطنة تستحق الزجر والعقاب.

وهكذا جاءت المثابرة التي قررها أبي، ووافقت عليها أمي وخالتي حسينة برد الفعل المنتظر، فقد تبلد ذهني أكثر مما كان بليداً، وضغط الكبت على حواسي فشلّ قدرتها، وعطل وظائفها وأساء الحرمان من اللعب إلى أخلاقي العامّة، فكنت لا أجد متنفساً ضئيلاً حتى أنفجر شيطنة، وأمعن في (الشقاوة) وأترك أبي وأمي وخالتي الفقيهة يؤمنون شديد الإيمان بأن شيطنتي معدومة النظير، وأنه لا يضارعني في الشقاوة حتى (العفاريت المسلسلة).

ولم تتسع معارف أبي لدراسة العلة التي تفاقم داؤها ليعطيها نصيبها من التنفيس، ولم يدرك أحد من معارفنا أو جيراننا مبعث الخطر ليشير بما يقتضيه الحال بل اتفق إجماعهم على نقص تربيتي وكان أحدهم يهيب به ((يا شيخ صالح –رب ولدك، وأحسن أدبه!! ما يموت حتى يفرغ أجله!)).

نشط للتربية وشرع يعد لها من الحبال المفتولة، والخشب الجامد والخيزران اللدن ما يكفي لأداء المهمة الشريفة، فكانت لا تضيع ((هللة)) من يدي، أو ينقلب لوح العيش من على رأسي، أو ينكسر سن قلمي البوص، أو يقول

الجيران أنهم شاهدوني أترك مداسي فوق عتبة الجيران وألعب ((الكبوش))[5]، أو أضارب صبي الفوال حتى يحيل والدي الأمر إلى الحبل المفتول، والخشبة الجامدة دون أن يسمح لي بكلمة واحدة أدافع بها عن نفسي مهما كانت ظلامتي، ثم لا يتركني إلا جسداً ممزقاً وأضلاعاً دامية.

وتركت هذه القسوة أثرها في نفسي.. هيأتني للعناد والمكابرة وعلمتني قلة المبالاة، وشجعتني على كثير من الصعاب التي يخشاها غيري، وأثبتت لي أن((العلقة)) الكائنة لا بد أنها كائنة!! سواء كنت فيها ظالماً أو مظلوماً.. فما يمنعني من الظلم، وأن أثأر لنفسي.

ولا أنكر أن أغلب هذه الصفات لازمتني إلى جزء طويل من حياتي وإنه لو لم تصادفني دراسات طويلة قرأتها فأدركت منها مواطن الضعف من تربيتي وثابرت على علاجها ما استطعت لكنت اليوم من أشقى من عرف من الأشقياء.

وهكذا استقر في ذهن خالتي حسينة أن الشيطنة غريزة متأصلة في نفسي، وشايعتها على هذا أمي؛ كما شايعها جميع الجيران والمعارف. أما أبي فقد آلى أن يحيل إلى العصا الجامدة والحبل المفتول كل أخطائي، أو أستقيم وألغي شقاوتي.

---

(5) – قلت (الجامع لمقالات الاستاذ السباعي) : لعبة الكبوش هي من أشهر الألعاب الشعبية في المنطقة الغربية وبخاصة) مكة المكرمة .(ويشترط لمن يريد ممارستها أن يكون لديه رصيد كاف من مكرات الخياطة، وحجر أملس من الجهتين يستخدم في رمي المكرات يسمى (اليرس). ويتكون فريق اللعبة من عدة أشخاص يقومون بوضع دائرة في الأرض وتوضع المكرات بداخلها. فيبدأ اللاعب الأول اللعب بالابتعاد عن موقع الدائرة مسافة 10م ثم يقوم برمي المكرات باليرس. فإن استطاع إخراج إحدى المكرات خارج حدود الدائرة فإنها تصبح ملكا له وإن لم يستطع يسلم اللاعب الذي يليه وهكذا. نقلاً عن الويكيبيديا.

(5) كتاتيب ومعلمون

طالت إقامتي في الكتَّاب كما طال ترددي على خالتي حسينة دون أن أنجح في (فك الحرف). فقد كانت قراءتي كلها آلية بشهادة جميع معارف أبي وجيرانه.

وأُشيرَ على أبي أخيراً أن ينقلني إلى غير هذا الكتاب فألحقني بكتاب في باب الدريبة، ثم بآخر في جبل الهندي ثم بغيره وبغيره، حتى انتهيت إلى كتاب أوسع كان قد أسسه نابغة جيله الشيخ محمد الخياط في مكان القبان اليوم بجوار المدعى وقسَّم طلابه إلى فصول بعضها أعلى تحصيلاً من بعض، وكان الشيخ عبد الرؤوف الصبان من تلامذة فصوله العليا، فألحقت فيه بفصل المبتدئين، وشرعت أعالج التهجِّي من جديد.

ولم يكن حظي في الكتَّاب الجديد بأحسن مما سلفه من كتاتيب، إلا أن طول الاستمرار كان له أثره الضئيل؛ فقد كنت قضيت من عمري إلى أن التحقت بكتاب القبان نحو ست سنوات استطعت في نهايتها أن أختم (جزء عم) وأن أقرأ في ركاكة واضحة بعض الكلمات من الخطابات التي تصل إلى أبي ويأبى إلا أن يمتحنني بقراءة ما فيها.

وأسس الحسين بن علي في عهد إمارته أول مدرسة عربية أمام باب السلام [6]، وكلف الشيخ محمد خياط أن يديرها، وأن ينقل طلاب كتابه من القبان إليها، فنقلنا جميعاً إليها، والتحقت بالفصول الأولية.

---

(6) - وقد أزيلت المدرسة من مكانها بفضل توسعة المسجد والمسعى.

وفي هذه الفصول شرعنا نتعلم الخط، وبعض مبادىء الحساب ثم أضيفت إلينا دروس في الفقه والتوحيد، والإملاء والتجويد وفنون أخرى بدائية كان لا بد منها لمدرسة تحضيرية. ولقد سر أبي بخطواتي الجديدة، ولكنه كان يطمع في تبريز أوضح. ويبدو أن شعوره بآلام أميَّته كان يثير قلقه، ويؤثر في حدة أعصابه، ويحيله إلى شخص خيالي يتطرف في آماله ويمعن في أحلام يتمناها لحاضري لا تتفق مع ما هيأني له في ظروف خاصة من بلادة ذهنية سوف لا تنقشع –إذا انقشعت– إلا بفعل الزمن وبعد أمد طويل.

كان يقول لي :((هادا ولد القمّاش لا يكبرك إلا قليل وهو يطلب العلم –يا حافظ– عند الشيخ الدهان في المسجد، وهادا ولد الساعاتي أصغر منك يخرج من يده خط زي اللولو، وهادا ولد المهرجي في باب السلام –ربنا يخلي له– يقرأ في الدكان تسمع قرآنه كما أنزل.. وأنت يا واد اللي ربنا عاميك وطامس على بصايرك)).

كنت أسمع هذا الكلام وأكثر من هذا، فيسيء من حيث لا يشعر إلى معنوياتي، ويقلل ثقتي بنفسي، ولو علم رحمه الله وعلم مثله كثير من الآباء على غراره، أنه من الخير أن يشجعني ويحمد أفعالي إلى حد موزون لأحسن بذلك إلى معنوياتي وتركني أثق في نفسي، وأمضي إلى الأمام في خطواتي، ولكنه وأمثاله رحمهم الله كانوا لا يرون الخير إلا فيما اعتقدوا.

كان رحمه الله يسألني أن أطلعه على خطي فكنت أقدم إليه سطراً مكتوباً بيد

الأستاذ يسمونه (مشقاً) وهو كناية عن نموذج يعطى لنا لتحسين خطوطنا على غراره كما تعطى كراسات الخط لتلاميذ اليوم.

كنت أقدم له هذا (المشق) مدّعياً أنه خطي فلا يكاد يلقي نظرة حتى يرميه في وجهي متبرماً .((هادا يا واد خط عفاريت مو خط ناس يتعلموا في مدرسة!! بكره تشوف إن فلحت تعال (....) على قبري))ثم يسألني في حدته التي لم تهدأ (فين خط الشيخ هات أشوفه) وعندئذ أعمد إلى سطر من خطي الرديء – بحق– فلا يكاد يقع نظره عليه حتى تنفرج أساريره ويهيب بي (شوف الخط الحلو كيف!! شوف طالع يا واد كيف نضيف!! كأنه لولو مرصوص!!). فلا أكاد أتركه يتم جملته حتى أضحك.. ولا أكتم ضحكي، بل أفسره في وقاحة (يا ريتك تدري يا بويا.. هو هادا خطي اللي شفته حلو والله العظيم!! أما الأولاني اللي رميته في وجهي فهو خط الشيخ!!). فلا يكاد يسمع ذلك مني حتى تثور ثائرته ويصيح في وجهي: (قم يا ملعون من قدامي.. أنت جاعلني مهزأة.. أنا أضحك على عشرين من أشكالك.. شوفوا يا ناس الواد ابن ستين كداب. وحياة ربك إن ما كنت تقوم من قدامي أخليك ستين وصلة.. امش قوم من قدامي).

وهكذا أقوم وفي نفسي ألف كلمة أتمنى لو أستطيع أن أقولها ولكنه.. أبي.!!

ولعل القارىء يدرك أن سخط أبي على خط الأستاذ الذي ظنه خطي كان يفيد معنوياتي، ويعطيني فكرة صحيحة عن حقيقتي التي لا يريد أن يعترف بها

أبي؛ لأن السلبية في نظر هؤلاء الآباء كانت ضرورة لازمة للحزم والتربية العالية!!

عفا الله عنهم فقد كانوا يرون الخير فيما يسلكون.

وزادت مطامع أبي في نجاحي بازدياد الأيام واشتد قلقه من أجل تعليمي، فكان يود بجدع الأنف أن لا يراني إلا مكباً على قراءة أو كتابة، وألا يسمح للعبث أو اللعب أن يشغل دقيقة واحدة من أوقاتي الثمينة، فكنت إذا اضطررت للاستجمام لجأت باسم (قضاء الحاجة) إلى بيت الراحة أقضي فيه بعض الدقائق التي تدفع عني السأم كما كنت أفعل في الكتَّاب.

وكانت شؤوني التعليمية بحثاً يستنفد أكثر أوقات أبي بالإشتراك مع أكثر معارفه وأصدقائه وجيرانه -: (شوف يا أخ حمزة الواد قرايته فيها لكلكة.. والله يا شيخ ما أدري هو أحد دعا عليه، وإلا من فين جاب هادي البلامة، إيش تشوف.. تقوم معايا نروح للشيخ الخزامي في الحرم نقل له خلي الواد يجوِّد عندك القرآن بعد المغرب!!).

وليت والدي كان يعلم أن إكبابي كان مبعث (بلامتي) وإن حاجتي إلى العبث واللعب أكثر منها إلى إضافة حصص جديدة أجوِّد فيها.

وكان في طريقه إلى صلاة العصر يحلو له أن يمر في باب الدريبة بحفار أختام تركي ويباحثه في شؤوني التعليمية: (الواد إلى الآن ما يعرف يبري القلم.. كمان خطه أشوفه مو شيء.. ما أدري الولد أبله أصدع.. أقل له: (يا واد تلاتة

حاجات تخليك سيد الناس قطة القلم –ولطعة المهر (يعني الختم) واستقامة السطر!! لكن الولد كأنه أحد دعا عليه بهذه البلادة.. إيش تشوف يا صبري أفندي أنا نفسي أخلي الولد يجي عندك ساعة كل يوم بعد العصر والا ساعتين، عشان يده تندار في الخط شويه).

وبذلك تضاف إلى إكبابي حصة جديدة أتعلم فيها كيف أدير يدي في الخط وكيف (ألطع المهر وأقط القلم –البوص– وأقيم السطر!!).

ويقف إلى دكان عم سعيد الحوات ليشتري لوازمه، فلا يلبث أن يدور البحث في شأني ((تقدر يا شيخ سعيد تسوي (مشق) للولد يخط زيه.. دخيلك أنا أرسل لك هو إذا جاء من المهرجي ياخذ المشق منك)).

وأذهب كما أمر أبي إلى الشيخ سعيد الحوات لأستلم منه (المشق) سطراً مدبجاً في خط مائل من أعلى زاوية في يمين الورقة إلى آخر منحدر في اليسار من أسفلها.. مكتوب فيه: (قدوة الأماجد وعمدة الأعيان سيدي العزيز الأعز الأحشم أطال الله حياته وأدام بقاه آمين). ولا يكاد المهرجي يلمح (المشق) الذي كتبه الحوات بين أوراقي في اليوم الثاني حتى يعبس ويسألني عن الحكاية فأخبره بها، فيحتد ويصيح في وجهي: (هل هادا خط؟.. أنت لعاب يا واد، وأبوك لعاب) ثم يطردني وأعود إلى أبي. فيعود إلى المهرجي ليسترضيه ثم يأمرني أن أخفي خط المهرجي عن الحوات، وخط الحوات عن المهرجي، وأستفيد من الاثنين في وقت واحد رغم تفاوتهما في القاعدة والأسلوب كما علمت فيما

بعد.

ويجتمع أبي في القهوة مع أحد أصحابه فلا يلبث أن يدور البحث في شأني((تعرف واحد يعلمه الحساب. إيش رأيك في عم شاكر المصري اللي يكتب عند العامود في باب السلام)).

والله جبتها.. ولكن أين الوقت الذي أذهب فيه إلى العم شاكر، إن جميع الساعات قد توزعت بين المدرسة والمهرجي والشيخ الخزامي والحوات ودراسة البيت.. إن هذا لا يعجزه في يوم الجمعة ((فاضي)) طول النهار.

وهكذا أجلس إلى جوار عم شاكر (ركبة ونص) وأتسلم منه جدول الضرب على أمل أن أحفظه، فيغلق دونه فهمي ويمر بي والدي فلا يجد في يدي إلا ورقة واحدة أطوحها يميناً وشمالاً وأنا سابح في آفاق بعيدة بين برحة المروة وخان السداري فيصعب عليه جلوسي في مثل هذا الفتور، ويلحظ العم شاكر ذلك فيهيب بي أكتب يا واد: (بركة تصب فيها ثلاث حنفيات: الأولى تملأ البركة وحدها في 15 دقيقة، والثانية تملأها في عشرة، والثالثة في خمسة، فلو فتحنا جميع هذه الحنفيات على البركة ففي كم دقيقة تملأ البركة؟

–نجمعها يا عم شاكر.

–طيب اجمعها.

–جمعتها 30 دقيقة.

–يعني؟

–يعني تتملا البركة في 30 دقيقة.

يا واد إذا كان حنفية واحدة تملاها في 5 دقائق كيف 3 حنفيات تملاها في 30 دقيقة –هذا كلام معقول؟

ويسبقني أبي الجالس على قيد ذراع منا.. يتسمع مسروراً بهذا اللغز الحسابي.. يسبقني إلى الجواب (لا.. كلام غير معقول).

وأكون في هذه الآونة قد عدت من سبحاتي في برحة المروة بين لاعبي (الكبت) وتنبهت حواسي من غفوتها.

–صحيح غير معقول 30 دقيقة.

–نطرحها يا عم شاكر.

–تطرح إيش من إيش.. هادي تلاتة أعداد يا واد كيف تطرحها؟

أجمع 10 و5 تساوي 15 وبعدين أطرحها من 15.

–يعني كم يبقى.

–يبقى صفر.

–وهل تتملا البركة بصفر؟

–لا.. غير معقول، ويهز أبي رأسه موافقاً العم شاكر بأنه غير معقول.

وأعود أنا من سبحتي في برحة المروة!! وأفهم أن الحل غير صحيح فأركز ذهني جيداً ثم أقول:

–نضربها يا عم شاكر؟

–تضرب إيش في إيش يا واد؟

–نضرب عددين يكفو.

–والعدد التالت فين يروح؟

–بلاش منه.

–أنت لعّاب يا واد.

ويوافق أبي أني لعّاب.. وأني كذلك لا أنفع للتعليم.

–طيب اضربها يا واد وريني.

–خلاص اضربها يا عم شاكر.

–اضربها حتى أشوف.

–نقول خمسة في عشرة تساوي خمسين.

–وليش ما نقول خمسة في خمستا عشر أحسن؟

–علشان ما أعرف الـ 5 في 15 تساوي كم يا عم شاكر.

–طيب إذا ضربت خمسة في عشرة وصارت خمسين.

–إيش يعني؟

–يعني نملي البركة خمسين مرة.

ويتحرك أبي في ملل ويهم بضربي ولكن العم شاكر يطلب منه الصبر والأناة، فيصيح أبي:

–لكن يا واد مين قال أن قصدنا نمليها خمسين مرة.. نحن ما نبغي نمليها إلا مرة واحدة، يعني نمليها في خمسين دقيقة.

–لا يا بويا.. غلط.

–طيب هات الصحيح.

–نقسمها يا عم شاكر.

–نقسم مين على مين؟

–نقسمهم كلهم على بعض.

–اقسمهم وريني.

–ما أعرف القسمة والله.. بس سمعت بها.

وينفد صبر العم شاكر فيختطف الورقة من يدي ويشرع في حل المسألة بطريقة النسبة والتناسب، ثم ينتهي إلى النتيجة وهي: (دقيقتان وبعض كسور

الدقيقة) فيكبر شأن العم شاكر في نظر أبي ويقول. هذا كلام معقول.

وأرى أنا أنه كلام معقول ولكني لم أفهم كيف بدأ الحل، وعلى أي حال انتهى. وأنى لمثلي أن يفهم النسبة وتحصيلي في الحساب لم يفرغ من الضرب.

ويلتفت العم شاكر إلى أبي وهو يقول (لا تزعل يا عم صالح هو تعليم المدارس بطّال).!

إذ كانت حسبة ما زادت نتيجتها عن دقيقتين وكسور يعجزوا عنها، هادا يسير تعليم؟

فيوافق أبي مقتنعاً بأن المدارس (ما فيها تعليم) والله العظيم تلاته ما فيها تعليم!!

(6) مع حفَّاظ القرآن

في هذه الأثناء كان الحسين بن علي قد شرع بتوثب للثورة على العثمانيين وشرع يجمع مشائخ الحارات في مكة وباقي مدن الحجاز ليقنعهم بضرورة الثورة على استبدادهم وظلمهم ويفرض عليهم الترتيبات التي يجب أن يتخذوها:

((إنت يا شيخ مكاوي عليك أن تجمع لي العيال المفاليح اللي في سوق الليل كلهم.. إحنا ما نبغي نسويهم عسكر.. بس غرضنا الفزعه.. هادا البلد بلدكم.. واحنا ما نبغاكم إلا تكونوا أسياد أنفسكم.. يعني تحكموا أنفسكم بأنفسكم.. وأنا وأولادي فداكم.. تكفا يا أهل زمزم!! ترى هادا يومكم.. وانتوا يا مشائخ الحوائر من المعابدة إلى جرول فاهمين الترتيب؟ عند الله وعندكم كل حارة يجمع شبابها للفزعة.. ترى العسملي ناس ما يبغوا إلا الحرية الكدابه.. يبغوا نسوانكم بكره سوا زيّ الرجال عيني عينك.. ونحن ناس ديننا ما يقبل إلا الحشمة.. إيش تقولوا؟؟؟)).

ويلغط المجلس.. مجلس المشائخ ويضربوا الأرض بنبابيتهم: والله إحنا دونك يا سيدنا.. واللي أنت فيه إحنا فيه.. والله كل شيء ولا حريمنا. وإلا إيش تقولوا يا مشائخ. ها انت يا أبو صادق وانت يا أبو سراج.. إيش تشوفوا يا جماعة؟

فهيب المجلس: نحنا لا نشوف ولا شيء.. اللي سيدنا فيه نحنا فيه.. كل شيء ولا فضائح الحريم!!

وينفض المجلس ويتصل كل شيخ بكبار الحارة عنده ويبدأ (المطاليق!!) في ترتيب هادىء لا يشعر به إلا بعض الأتراك الذين

تتسرب إليهم الأخبار في مكة مضطربة مشوشة يعجزون عن تفسيرها.

ويطلق الحسين رصاصته الأولى في فجر يوم **9** شعبان إيذاناً بقيام الثورة فتزحف جموع أولاد الحارة إلى أجياد ليحيطوا بقلعتها ويطلقوا النار على من تحصّن فيها كما يزحف غيرهم إلى جرول ليحيطوا بالقشلاق وغيرهم إلى الحميدية وبقية مراكز البوليس يعرضون عليهم النار أو التسليم. واستسلمت المراكز الصغيرة في مكة في الثلاثة الأيام الأولى من قيام الثورة ثم استسلمت القلعة بعد بضعة أيام واستسلم المحصنون في القشلاق على أثر ذلك وشوهد الجند العثمانيون يساقون أسرى إلى حيث تم ترحيلهم.

واستسلمت حامية جدة وينبع ورابغ بعد لأيٍ قصير ولم تستعص على (أصحاب الفزعه) والحارة إلا المدينة فقد ظلت حاميتها صامدة حتى بلغها سقوط الآستانة في نهاية الحرب العالمية فطلبت الأمان.

وجنَّد الحسين من (فزيعة) الحارات ألوفاً دفعهم إلى الشمال فاشترك بعضهم في حصار المدينة ومشى البعض في طريقهم إلى الشام تسندهم قوات الحلفاء حتى تم فتح دمشق ونودي بفيصل بن الحسين ملكاً عليها.

وتتابعت الأحداث على أثر ذلك مما تجده مفصلاً في مظانه من تاريخ الثورة العربية فنحن هنا لا يهمنا إلا أن نعود (بفزيعة) الحارات إلى مكة بعد أن تم للجيوش العربية من سائر الأصقاع فوزها لإجلاء العثمانيين من بلاد العرب إلى حدودها الشمالية في أطنة تحت أمرة فيصل بن الحسين.

يهمنا أن نعود (بفزيعة) الحارات إلى مكة لنتابع الحسين في نهضته

الجديدة وقد بدأها بتأسيس المدارس.

كنت أثناء ذلك من المواظبين على مدرستي التحضيرية في باب السلام رغم اعتقاد والدي بأن المدارس (بطالة)، وقيل لنا أن دراستكم التحضيرية قد انتهت، وأن الحكومة ستنقلكم إلى المدرسة الراقية في قلعة جبل هندي؛ لتدرسوا العلوم العالية فلم أفهم جميع ما قيل لي ولكني عرفت أن المدرسة فيها حركة. وأن (سيدنا) ينوي زيادة تعليمنا وكلمة (سيدنا) أصبحنا لا نطلقها في هذا السن على فقيه الكتاب الذي عرفناه فيما سبق بل هي لقب أصبحنا اليوم في فتوتنا الجديدة نطلقه على الحسين بن علي ملك البلاد.

وسمعت أبي في البيت يناقش خالتي (حسينة) فقيهتنا القديمة بعد أن أرسل في طلبها مستعجلاً، ويقول لها: (جاني مرسول من الشيخ غزالي رئيس مدرسة (الواد) يسألني هل أوافق على نقل (الواد) في القلعة يقرأ علوم، وإلا يخلوه في مدرسته يحفظ القرآن بالغيب؟).

(والله يا حسينة الواحد يحفظ القرآن بالغيب.. ينفع نفسه بكره أموت يقدر يقرأ على روحي.. يكون الولد في محل ما فيه (ختمه) إيش يسوي؟ يقدر يتلي من القرآن اللي في صدره زي ما يبغي.. والا إيش تقولي يا حسينة؟).

وترى خالتي حسينة أن المسألة لها أهميتها فتطرق برأسها ملياً ثم ترفعه وهي تقول:

(ما فش أحسن من حفظ القرآن بالغيب.. بكره لو احتاج هذا الولد بعد ما تغمض عينك يقدر يسوي كتاب ويقري الأولاد ويجيب فلوس.. روح يا عم صالح اتوكل على الله وخلي الواد يحفظ بالغيب..

وإلا مقصودك يسوي عالم؟!!).

ويعتدل أبي في جلسته وينفث دخان سيجارته (يا ستي على مهله يسوي عالم!!.. هو إذا حفظ اليوم (الختمة) وجوَّدها يسير بكره أحسن من العالم.. اتوكلنا على الله).

وهكذا بتَّ في مصيري وأنا على كثب من البرلمان المعقود دون أن أسأل في شيء. والواقع أنني لو سئلت لعجزت عن فهم ما يسألون ولو فهمت لرجوتهما تأجيل المناقشة، وإعطائي فرصة واسعة أتمتع فيها في برحة المروة وأروي حرماني الطويل بالجري والنط ومضاربة (العيال).

(7) شيطان الفصل.. عباس

ونقلت المدرسة زملائي من الطلاب الذين قيل أنهم فرغوا من التعليم التحضيري إلى المدرسة الراقية في قلعة جبل هندي، وأمروني وجماعة يبلغ عددهم الثلاثين أن نتخلف في مكاننا حيث أفردوا لنا غرفة جمعونا فيها وكتبوا على لوحتها (صف الحفّاظ)

وانتدبوا لنا الشيخ ((إسماعيل)) ليكون أستاذنا في تحفيظ القرآن ودراسة بعض مبادىء العلوم التي قرروا أن ندرسها إلى جانب حفظ القرآن.

وعز على الشيخ إسماعيل أن يعترف بمبادىء العلوم التي قررها لنا المنهج وكلفه بها.. فقد كنا لا نزاول في فصله غير حفظ القرآن إن كان ما زاولناه عنده يسمى حفظاً!!

يبدو لي أن الشيخ إسماعيل كان أول شيخ رأيته لا يعرف كيف يمارس أعمال الشخط، والنرفزة ولهب الظهور بالعصى الرفيعة اللدنة. ولهذا كان جزاء حلمه بين طلابه أسوأ جزاء ينتظره طيب القلب بين طلبة أشرار آثمين.

كان شيخنا مصاباً بما يشبه الصداع في رأسه.

وأعتقد أن صداعه من نوع لا يخفف وطأته إلا مزاولة العطاس. لهذا كان يعد في جيبه أعواداً من الكبريت وشيئاً من القطن النظيف فإذا بدأ جلسة الصباح بيننا نسى وظيفة الحصة الأولى، وشرع يلف القطن على عود من الكبريت الذي أحضره لفاً رقيقاً تبدو نهايته رفيعة دقيقة ثم يدسه في أنفه، ويبالغ في إيصاله إلى آخر ما استطاع أن يبلغ من خيشومه حتى يواتيه العطاس.

وكان إذا واتاه العطاس أنساه محيطه وتركه مشغولاً بمنديله الملوث، وعطاسه المتكرر العالي عن كل من حوله، فكان شياطين الطلبة يغتنمون فرصة انشغاله بنفسه ويسرقون ما هيأ من أعواد الكبريت والقطن. فإذا أفاق من نوبة

العطاس، وأراد استئناف العملية بحث عن الأعواد والقطن فلا يجدها. فإذا طال بحثه دون جدوى حسم الأمر في سكون، وقام إلى (صديريته) ليستخرج أعواداً وقطناً من جديد. دون أن يتكلف مناقشة من حوله فيما ضاع أو يعني نفسه بمنازعتهم.

وقد يشرع في لف عود جديد، ثم يلتفت فإذا أعواده وقطنه الضائع على كثب منه فلا يسأل عن اليد الخفية التي مازحته. بل يكتفي بضم ما وجد كأن لا جديد في الأمر. فتتجاوب الضحكات الخافتة بين طلبته ثم تنقشع بصوت أو أصوات مقهقهة فلا يزيد عن أن يلتفت إلى مصدر الصوت أو الأصوات: (يا ولد.. عيب يا ولد!!) ثم ينسى ما كان ويعود إلى استئناف عملية أنفه ليستأنف العطاس.

وكان يحلو لبعض المتشيطنين أن يداعبه أو يداعب الطلبة فيعمد إلى اصطياد بعض الذباب بيده، ثم يجعل في مؤخرة كل ذبابة (قشة) رفيعة طويلة، ثم يطلق الذباب في الغرفة ليثير الضحك بما صنع لها من أذناب طويلة. فإذا طرق سمعه الضحك وتلفت إلى مصدره هدأ المصدر، وانطلقت ضحكة غيرها في جهة أخرى. فإذا التفت إلى الثانية هدأ صاحبها، وانطلق ثالث في زاوية غيرها يضحك. فإذا شعر الشيخ أن المزاح قد ثقل! وأن ترتيبه متفق عليه. أطرق إلى الأرض، وراح يبحث عن قطن جديد يعالج به أنفه!!

فإذا أبت ذبابة مذيلة إلا أن تحط على أنفه، وترسل ذنبها من القش إلى ما بين عينيه رفع يده ثم وضعها على (القشة) الذنب، ثم عاد فأطلقها وهو يكتم ضحكة خافتة يخشى أن يسمعها الصبيان!

وتنتهي عملية القطن والأعواد والعطاس بانتهاء الحصة الأولى. فينشط لأعمال الحصة الثانية ويصيح بنا (مين حافظ يا ولد) فيدّعي أكثرنا الحفظ.

وليس فينا صادق. ثم ينتقل أولنا ليجلس قبالته كما يجلس المصلي على ركبتيه، ولا يشرع في قراءة ما استظهره حتى يكون زميله قد زحف في هدوء حتى يستوي خلف الشيخ، ثم يفتح المصحف على مصراعيه ليتابعه الحافظ عن بعد، ويقرأ ما فيه موهماً شيخنا أنه يقرأ ما يقرأه غيباً. وتتكرر العملية بتكرار التلاميذ الذين ينتقلون لتسميع الشيخ ما حفظوا، ويزحف زملاؤهم إلى ما يلي ظهر الشيخ ليقابلوهم بالمصحف مفتوحاً تطالعهم فيه الآيات التي يقرأونها.

ويبدو أن مصلحة التلاميذ المشتركة في هذا الغش كانت تجمعهم على هذا التآلف والتساند، إلا أن الشذوذ الذي لا يخلو منه زمان كان يدفع بعضهم إلى مسارَّة الشيخ بحقيقة الواقع تزلفاً أو نصحاً، إلا أن سيدي الشيخ كانت أخلاقه أكبر من أن تقبل الغيبة في الفصل، فكان يعلن هذه الأسرار كما يعلن أسماء أصحابها :((صحيح يا واد عباس انتوا اتفقتوا تفتحوا الختمة قدام بعضكم.. أنا أخبرني حسين أبو قورة، وسعد جانشاه، لكني ما صدقتهم حتى أشوف واحد فيكم يغش رفيقه وأنا أعرف كيف أربيه)).

ويغضب الواد عباس وهو قائد الأولاد في الفصل وصاحب كلمتهم.. يغضب لهذه التهم الجزاف!! ويتقلص ما بين عينيه، ويتهدج صوته، وترتعد مفاصله وتتزاحم الأيمان الفاجرة على شفتيه في تمثيل بارع يأخذ فيه على الشيخ مذاهب القول ويملك عليه مواهبه، فيطرق ملياً وهو يتمتم بكلمات كنا نعتقد أنه يطلب من الله فيها النجاة والعافية.

ويلتفت الواد عباس في حركة بارعة وأسارير ضاحكة إلى زميله الواشي مشيراً إليه بما يحضره من إشارات الوعيد فيصيح الواشي ..((يا سي الشيخ.. شوف عباس يضحك.. ويقول لي أوريك شغلك)) ولا يرفع الشيخ رأسه حتى تكون عضلات وجه عباس قد تقلصت، وغاض الضحك بين صوته المتهدج، وأيمانه

المغلظة. فيؤخذ الشيخ بروعة ما يبدو على عباس، ويسأل الأولاد ((صحيح يا واد أنت هو كلام أبو قوره، ولا كداب))، فيدوي المكان بضوضاء المتبرعين بالشهادة الزور– ((كداب يا سيدي الشيخ.. كداب أبو قورة)).

فيربح عباس الموقف، ويأبى أن يجلس حتى يستأنف وعيده في إشارات خافتة يوجها إلى أبي قوره. ولا يجد أبو قوره ما يشجعه على الكلام فيجمع أنفاسه ويتجمل بالصبر.

لم يكن عباس ولداً عادياً يقال في شأنه ما يقال في شأن الأولاد العاديين، أو غير العاديين. بل كان بدعة من بدع الخلق وكان لا يضارعه في شقاوته أو شجاعته أو براعة تمثيله، أو حذقه في الدهاء مضارع.. وكان إلى هذا ظريف المعشر خفيف الظل، يهوى المشاكسة للعبث والضحك أكثر ما يهواها للشر.

كان يقود أولاد القسم قيادة تمنيت أن يوهب شيخنا مثلها، وكان إذا بيّت على (شقاوة) أذاعها بين إخوانه في شجاعة، وتركهم يتمتعون ما شاء لهم الضحك دون أن يتجرأ ولد منهم على مناهضته إلا إذا شاء أن يتعرض لوعيده كما تعرض له أبو قوره.

كان يعلن للأولاد بأن ريحاً في بطنه تزمع الخروج في أصوات متقطعة تزيد في عددها عن العشرين فعليهم أن يحصوا عددها وألا يستخفهم الضحك حتى لا يتنبه الشيخ في مجلسه لحقيقتها.

ثم يبدأ خروج الريح حركة فحركة في أصوات متقطعة تبدأ خافتة، ثم تبدأ في الوضوح. وسيدنا الشيخ يصغي إلى هذه الأصوات، ولا يدور بخلده شيء مما يعرفه الأولاد. ثم يلتفت إلى الميمنة مرة وإلى الميسرة أخرى (إيش هذا يا واد إنتوا سامعين) ويكتم الأولاد ضحكاتهم وينكرون على الشيخ ما يسمع، أما عباس فإن في مذاكراته ما يشغله عن العبث، وفي ملامح وجهه ما يدلك على

جهله بجميع ما يحدث.

ويهيب به الشيخ (إنت مو سامع هادي الأصوات يا عباس).

-لا ياسي الشيخ.. يمكن أذنك تخايلك.

ويدعك الشيخ أذنه بخنصره مرة وسبابته أخرى ثم يتسمع فلا يجد أثراً للأصوات التي شاغلته، وعندئذ يلتفت إلى عباس المشغول بمذاكراته.

-معاك حق يا عباس.. أذني في بطنها شيء.

ومن وصايا عباس لأخوانه في الفصل ((إذا ضرب الشيخ واحد فيكم عصاية واحدة فعلى المضروب أن يحط يده على العضو المضروب ويصرخ في شدة يرتفع فيها صوته إلى سابع بيت كأن العضو قد كسر وقد لحق به خطر تالف.. وعليَّ أنا إتمام الباقي)).

وهي من وصاياه الناجحة؛ لأن سيدي الشيخ إذا جرؤ مرة على ضرب أحدهم -وقليلاً ما يجرؤ- راعته الصرخة التي تند عن المضروب فيرتبك عليه الأمر ويسقط في يده، ثم يلتفت إلى عباس كأنه يستفهمه الأمر فيهرع عباس إلى المضروب وبعد أن يمسح عليه برفق يقول للشيخ؛ (لا، الحمد لله.. ما حصل شيء كانت الضربة غلط.. الحمد لله على السلامة.. يتوب ياسي الشيخ).

فينتاب الشيخ الوجل، ويعود إلى مكانه، ويتمتم بكلمات لعله يطلب فيها السلامة والنجاة.

وكان عباس إذا حلا له أن يبدد ساعات اليوم في الفوضى عمد إلى إخفاء فردة من نعال الشيخ في اللحظة التي يعرف أن الشيخ سيغادر فيها الفصل إلى (بيت الراحة) فإذا افتقد الشيخ الفردة صاح ((يا واد انت وهو مين شاف فردة النعل؟)) فيبادر عباس بما عرف من نجدته في نظر الشيخ ليبحث عنها؛ ثم يقدم نعاله إلى الشيخ ليقضي حاجته إلى أن يجد عباس الفردة؛ فإذا قضى الشيخ

حاجته وعاد إلى الفصل وجد الفصل خالياً إلا من شخصين أو ثلاثة بينهم عباس، وهم يقلبون الحصير، ويبحثون تحت الأوراق المهملة عن فردة النعل. فإذا قال الشيخ ((ولكن فين راح الأولاد)) تطوع عباس للإجابة ((فرقتهم يا سي الشيخ للبحث عن فردة النعل. لأن بعض الأولاد في الفصول الثانية شياطين أخاف يدسوها)) ..فلا يدري الشيخ أيرضى عن تصرفات عباس ونجدته، أم يغضب، ولكنه يدري أن السكوت –على ما تعوّد– أسلم.

ويظل الأولاد بين داخلين في الفصل، وخارجين منه حتى تتبدد أهم ساعات النهار. وعندئذ يجدون فردة النعل ويربح عباس نتيجة الموقف.

ويلجأ عباس في بعض الأحيان إلى بعض النقود التي يجعلها الشيخ تحت وسادته لتكون قريبة منه لما عسى أن يحتاج منها. فيخفي عباس منها نصفها فإذا سأل الشيخ مستغرباً ما حدث تطوع عباس بإثارة الفوضى، وأخلى الفصل من الأولاد إلا شخصين يساعدانه في قلب الحصير، وبعثرة ما تحته من تراب، ولا معدى من العثور على النقود المفقودة، ولكن بعد أن يكون عباس قد قضى حاجته من الساعات التي أراد أن يبددها.

وعلى هذه الوتيرة قضى فصل الحفاظ أغلب عامه الدراسي دون أن ينتفع لدراسته بشيء وإذا كان بعضنا قد بلغ فيما استظهره عدة أجزاء من القرآن فإنه ليس في هذا البعض من يستطيع قراءة ثلاث آيات دون أن يسارق النظر إلى مصحف مفتوح.

ويبدو أن إدارة المدرسة شعرت بفشل شيخنا الطيِّب فأسرت إليه في مساء أحد الأيام بما لا نعلم، فسكت على مضض حتى إذا آن أوان الانصراف قام على غير عادته يودعنا وفي آماقه من الدموع ما أثار أحزاننا وأبكى عميدنا عباس بكاء دل على مبلغ شعوره (الرقيق!!) وكانت تلك الأمسية آخر عهدنا

بالشيخ إسماعيل.

وقد علمنا فيما بعد أن عميدنا عباس كان يزور الشيخ في خلوة بجوار باب الدريبة، ويمده بمساعدات خاصة كان يختلسها من دكان أبيه.

(8) حفظ متقن

وما كدنا نبدأ حصتنا في اليوم الثاني حتى صافحتنا قامة المدير المديدة تتبعها قامة لا تقل عنها طولاً، وسمعنا المدير يقول: (تفضل يا سي الشيخ.. يا واد إنت وهو.. لا يوصلني خبر عن أي واحد يقل الأدب منكم!.. سامعين والا لا.. تفضل يا سي الشيخ).

وتفضل الشيخ أحمد زهر الليالي، وجلس في صدر الفصل مكان الشيخ إسماعيل وبادره صاحبنا عباس: صبحك الله بالخير يا سي الشيخ. (احنا هنا تحت أوامرك). ولكن الشيخ لم تعجبه الكلمة وداخله الريب في جرسها، فالتفت في هدوء إلى حيث كان يجلس عباس؛ وحدجه بنظرة طويلة شعر بنفودها إلى أعمق أسراره فاختل توازنه، واستشعر الفتور في كل عضلة من أعضائه.

وبدأ الشيخ يسألنا عن القدر الذي استظهرناه من المصحف فإذا أجابه أحدنا أمره بالجلوس بين يديه، وكلفه بقراءة آية، أو آيات مما حفظ. فأغلق على جميع من في الفصل، ولم يستطع أحدنا أن يثبت أنه مر بآية واحدة من الآيات التي يجري الامتحان فيها.

أما عباس عميدنا الشقي فقد شعر أنه في حاجة إلى أن يتقلص وأن يكتم أنفاسه حيث يجلس؛ حتى لا تنم عنه نأمة، أو تدل عليه حركة.

وانتهى الشيخ من فحصه في لحظات كانت جديدة في حياة فصلنا بما شاع فيها من وجوم، ثم استوى واقفاً وشرع ينقل خطاه في تؤدة بيننا، ويسدّد نظراته الثاقبه إلى كل جماعة منا كأنه يستنبيء الملامح ما خفي من حقائقها، ويستنطق العيون ما دق من أسرارها.

وعندما أولانا ظهره ليعود إلى مجلسه لم يجرؤ أحد منا على متابعته بالنظر كما لو كان لظهره عين تحصي علينا الحركة والإشارة.

وأخذ مكانه من المجلس، وطفق يملي أوامره الجديدة (نحن لم نحفظ إلى اليوم كلمة واحدة من القرآن سنبدأ دروسنا من (بكرة) من أول سورة البقرة.. يجب أن يحفظ كل واحد منا صفحة كاملة حفظاً متقناً.. أتسمعون!.. حفظاً متقناً!..! يا ولد! أنا لا أقبل أكثر من غلطة واحدة في جميع الصفحة.. أتسمعون؟!!).

وقد سمعنا.. سمعنا مرغمين وعلمنا الإرغام كل معاني الإصرار فأصبحنا نبكر إلى الفصل وفي أعماقنا حركة دائبة أما شفاهنا فلا تتحرك إلا بتلاوة الصفحة المطلوبة منا.

وتقاعس بعضنا، فعلمهم الشيخ أدق المعاني التي تحويها معاني التقاعس وأذاقهم من وطأته ما بدد أحلامهم في الحياة التي كانوا يعيشونها قبله.

أما عباس فقد تقلصت عمادته، وتضاءلت جرأته، وتبخرت قدرته على التفكير في كل الحيل التي كان يزاولها، وأصبح يُرى وهو يتخطى عتبة المدرسة داخلاً إليها يتمتم بكلمات يتحصن ببركتها من بأس الشيخ، أو يكرر في سره حصته من القرآن في ذلك اليوم.

أما بعض (البلداء) فقد آثروا كي أقدامهم في بلاط المسجد الحرام وقت القيلولة ليدمغوا جلدتها السفلى ويعدوها لتحمل وطأة الخيزران كلما جدّ أوان الجلد.

(9) في المدرسة الراقية

قضيت نحو ثلاث سنوات في استظهار القرآن غيباً حتى أصبحت من حفاظه الممتازين واستطعت أن أحقق في امتحان نهاية السنوات الثلاث درجة طيبة أهَّلتني للنقل للصفوف التي تدرس العلوم على أنواعها في المدرسة التي سموها راقية.

ورأيتني أشعر وأنا أختلط بالزمرة الجديدة من الطلبة أن مستواي في الفهم واستيعاب ما يقرره المدرس أدنى بكثير من مستوى زملائي.

ولعل لتطرفي في إجهاد حافظتي أثراً في الضغط على بعض التلافيف في رأسي بصورة عطلت وظائفها في الفهم فابتكرت لنفسي أسلوباً أقيد به حاصل الشروح التي يلقيها أستاذ الدرس.

كنت أعمد إلى (فرخ الورق) من القطع الكبير فأسجل في زاوية منه أكبر ما يشرحه الأستاذ بألفاظه وحروفه في أكثر الأوقات كما أسجل في زاوية أخرى لأستاذ آخر ما يقوله بنفس المنوال وأستمر على ديدني هذا في أكثر الدروس حتى أملأ القطعة من الورق على كبرها بعشرات الشروح بعد أن أعنون كل شرح في زاويته بما يدل عليه. والطريف في الأمر أني كنت إذا امتلأ (فرخ الورق) من جميع جهاته كتبت في رأسه (جريدة سباعية تصدر عند اللزوم).

ولقد ساءني هذا بقدر ما نفعني، فقد كان أستاذ الدرس لا يكاد يوجه سؤاله عن أي معنى شرحه في درس سابق حتى أبادر قبل غيري بالإجابة اعتماداً على ما كتبت إجابة لا تخرج عن النص الذي تلقيته منه بحروفه وألفاظه فربما سره هذا وهو لا يدري أنها إجابة آلية كنت لا أفهم مما تعنيه حرفاً واحداً وبهذا ظللت في منأى عن أكثر ما يفهمه غيري في أكثر الدروس كما أسأت من حيث لا أقصد إلى بعض زملائي الذين كانوا يستسهلون الاعتماد على جريدتي!!

على أن هذا لا يعني أن دراستنا كانت تحفل كثيراً بناحية الفهم فقد كان التحفيظ ركيزة هامة من ركائز التدريس فكثيراً ما كنا نكلف بحفظ المتن والشرح وما يتبعهما من تعليقات..

حتى المحفوظات الأدبية كان لا يكفي أن نحفظ نصوص الأبيات بل لا بد أن نحفظ ما يتعلق بها من مقدمات تنعت الشاعر وتصف ميزته في الشعر وقصة الظروف التي دعته لقول ما قال ثم ما يتبع ذلك من هوامش توضح معاني الأبيات وتفسر ما غلق من ألفاظها فكنت أعاني من بلادة ذهني في الحفظ ما لا يعانيه غيري وإن كانت أكثر معاني القصيدة تعلق بذهني أكثر مما تعلق الأبيات نفسها.

وما كنت أرتاح لشيء ارتياحي لفن الإنشاء لخلوه من عنت الحفظ.

وكان للإنشاء عندي دفتر خاص أجمع فيه ما يلذ لي جمعه من قراءاتي في سيف بن ذي يزن وقصة حسن البصري والسبع بنات وكتاب فتوح الشام لأختلس منه ما يتناسب والموضوع الذي يكلفنا به مدرس الإنشاء.

وإني لأذكر أني سمعت خالتي حسينة فقيهتي في نشأتي الأولى تترنم بكلمات قالت فيها:

–الدهر هبة بعد هبة.

–هبة في العلالي.

–وهبة في الهجبه.

–وهبة تأكل لحم ضاني.

–وهبة ولا حبه.

فلذ لي معنى ما قالت وأسرعت فسجلت ذلك في دفتري حتى كانت حصة الإنشاء وكان موضوعها (غدرات الزمان) فأنشأت أكتب ما أعرفه وختمته بهذه

الأبيات فما كاد مدرس الإنشاء يقرأها حتى هزه معناها وصاح بالطلبة أن يسمعوا ما كتبت فكان يوماً مذكوراً نجحت فيه على أكثر الطلبة الذين كنت لا أدانيهم براعة ولا فهماً ولا كفاءة في الحفظ.

وأني لأذكر أنني رغم عجز موهبتي في الحفظ استطاع مدرس اللغة العربية بما ملك من صلاحية واسعة في استعمال العصا أن يلزمني بحفظ متن الأجرومية فحفظتها عن آخرها وإن كنت لا أكاد أحفظ الجزء حتى أنسى ما قبله ولكن ملاحقته التي لا تفتر أبت إلاّ أن تطوع حافظتي قسراً لما يرى.

وأبت الصدف في العام الدراسي الذي يليه إلا أن يكون المدرس نفسه مدرسنا في اللغة العربية فعرف كيف يلزمني بحفظ ألفية ابن مالك ولكنه لم ينجح نجاحه في تحفيظي الأجرومية، ذلك أني حفظت بعض أجزائها وعاندته في بعض آخر فحاولني بكل الوسائل التي يملكها فأصررت على العناد أو إن شئت فقل كنت أعجز من أن أطاوعه فيما يريد فما لبث أن سئم وتركني لعنادي.

والذي يجب أن أعترف به إنني رغم ما عانيت في حفظ الأجرومية ورغم ما استطعت حفظه من ألفية ابن مالك عشت لا أدري ما جدوى ما أحفظ ولا أعرف شيئاً عن مدى علاقته بتقويم لساني بل لا أعرف مبلغ حاجة لساني لأن يقوَّم.

ليس معنى هذا أن أستاذ النحو كان لا يشرح لنا معاني ما حفظنا ولكن تلافيف الحفظ في دماغي اتسعت أكثر مما يجب لطول ما استعملتها فأخذت مكان غيرها من التلافيف فعطّلتها عن وظائفها في الفهم فأصبحت عييّاً في فهم ما يشرح. ثم ما لبثت تلافيف الحفظ أن كلت وعجزت.

ولبلادتي في الفهم تقدمت بي السن دون أن أحصل على حصيلة تستحق الذكر في علم النحو، ولولا أني شعرت بعد سنوات أنني فقير فيما يقوِّم لساني

فاضطررت لقراءة كثير من الشروح لظللت إلى اليوم لا أعرف الغرض من علم النحو.

ومما يضحك أنني على أثر هذا لجأت إلى شيخ من شيوخ النحو كانت تربطني به صداقة متينة ورجوته أن يتفضل بإعطائي درساً في النحو فلم يبخل بذلك ولكن صفاقتي أبت عليَّ أن أستمر، فقد تراءى لي بعد الحصة الأولى والثانية أنه يسهب في تفريع الفروع وتنويعها فقام في ذهني بعد أن راجعت حواشي الكتاب واستوعبت ما يعنيه أن في الإمكان تبويب الموضوع بشكل أقصر فجئته في حماس فاتح القسطنطينية أعرض عليه الفكرة في غرور الشاب المراهق الذي يشعر أنه لا يدانى في الفهم.

فما ملك أن رمى الكتاب في وجهي– ((قوم من فضلك.. شوف لك واحد غيري اتفلسف عليه.. أنت رجل منت حق تعليم انت!!)) فقمت.

قد يترآءى لبعضهم أن يسألني :((ولكن كيف يتهيأ لمثلك أن ينجح في الاختبار)).

الواقع أن لطيبة القلوب التي كان يتمتع بها أكثر مشائخنا دخلاً كبيراً في نجاح أكثرنا..

لم يكن الاختبار تحريرياً إلا في مواد خاصة كالخط والحساب وما يشبههما أما بقية الدروس فيجري اختبارها شفوياً.. يجلس الشيخان أو الثلاثة على كراسيهم ويحضر التلاميذ:

–مين أبوك يا شاطر؟.. أو هوه أعرفه والله رجال طيب ها بشرني حافظ التاريخ.. كيف بلبل؟ ها سمعني يا شاطر كيف كانت وقعة القادسية.. لا مو كدا.. لا تتربش.. على مهلك.. ارجع من الأول.. لا باين عليك البارح ما رقدت.. أيوه ارجع ثاني مرة.. برضو حفظك مو مضبوط ها يا شيخ إسماعيل

ايش تشوف نحط له بس 6 من 10 لا ما عليه.. زيده كمان نمره أبوه رجال طيب..

-ها أزيدك النمرة لكن بشرط تحفظ..

-أيوه يا سي الشيخ الله يرحم أبوك خلي لي هيا بس 8 والا 9 الله يعافيك.

-والله ما أدري.

-ها ايش تشوف يا شيخ عمر؟

-زي بعضه يا سيدي.. بلكي يتشطر بعد كده ويصير رجال..

هذا لون لا يتعمدون فيه الغش فقد كانت فطرتهم سليمة تقودهم من حيث لا يقدرون إلى ما يعتقدون خيراً لطالبهم الممتحن المربوش.. اللي ما رقد البارح!! ما كان الرجل منهم رجل بوليس يتعقب من يقع في الفخ كما هو الحال في بعض الحالات التي تمر اليوم ببعضنا.

والطريف في الأمر أنني أذكر شيخاً من جلة علمائنا كان يحضر دروس الامتحان كمختبر فإذا سأل الطالب عن مسألة وبدأ الطالب يجيب.. تابعه بحركة شفتيه وربما سبقت الشفتان إلى السياق فكان الطالب إذا وقف به جواد القول يستطيع أن يتابع حركة شفتي الشيخ من حيث لا يدري فتتضح له معالم السياق..

أولئك أشياخي فجئني بمثل طيبتهم وحبهم لخير الطالب وما كان اعتمادهم على العصا إلا ليقينهم أنها أداة التقويم الوحيدة.

(10) ستي[7]

وأحسبني أطلت في استقصاء ما أحاط بي في المدرسة، ومن الخير أن أنتقل إلى ما أحاطها في البيت مما ترك أثره في حياتي.

كان أبي –كما أسلفت– قد طبعني رغم حبه لي على قسوة الحياة لأن حب الأبناء ما كان يعني في نظر جيله غير الصرامة والإلزام يقصر عنها الجدل، وكان جميع ما يبلغه من شقاوتي في البيت أو الشارع أو المدرسة لا يقبل دفاعي فيه، ولا يبيح لي في شأنه تفصيل الملابسات التي تهون من وقع الحادث أو تخفف من عقوبته.. لأن ذلك في نظره فصاحة أو (فصعنة لا يقرها الأدب العالي!!).

وكانت لأبي عقائد في الحياة لا هوادة في شأنها. فمذاكرة الدروس والإكباب عليها لا يجب أن تحدد بأوقات وتقاليد لف العمامة، وطريقة ربط الحزام، وكيفية انتعال (المداس) وشكل ارتداء الكوفية كل هذه أشياء يجب أن يساير فيها الوضع العام، وأن تحترم عادته في شأنها.

وكان لمجلسه أدب خاص.. فجلوسي أمامه يجب أن لا يتغير عن الوضع المعروف عندهم بالحشمة، ويجب ألا يستثيرني الحديث فأنبس بكلمة. أو أناقش في رأي، أو أضحك لأقل مناسبة بحضوره فذلك سلوك لا يتفق مع الأدب العالي كذلك!!

(7) - ذكرت أن الحجازيين يطلقون كلمة (ستي) ويريدون بها الجدة للأب أو الأم، ونحن ابتداء من هذا الفصل قد لا نستطيع التقيد بوضع لفظة ستي بين قوسين دائماً كما تقضي العادة الجارية.

وقد تركت هذه الآداب في نفسي أكثر من عقدة فإذا رأيتني اليوم أمقت التقاليد، ولا أتقيد في المجالس الكبيرة بآدابها الخاصة إلا مكرهاً، وأتميز عن كثير من غيري بكثرة الكلام، وشدة اللغط وقوة المراس في الجدل.. فذلك أثر الشعور بالنقص الذي أحاول أن أعوِّضه باللجاجة وحب الانطلاق، والنفور من القيود العامة. أما أمي فقد كانت مسكينة لا تتميز بشيء، ولا تترك في غيرها أثراً ويبدو أنها عاشت رحمها الله مشغولة في التوفيق بين عطفها عليَّ؛ واحترام إرادة أبي في تقويمي.

وعندما توفيَ والدي، وتركني لها قضت حياتها حائرة في انتهاج السبيل الذي يوفق بين ضعفها وتهذيبي، ورأيتني أستغل حيرتها فأتخطى الحدود، واستمرىء الانطلاق، ثم أستوي على عرش البيت، وأفرض إرادتي على الضعفاء والحائرين. وتلك هي عقدة النقص التي تركتها في نفسي حياة القسوة والقيود، والتي اندفعت بتأثيرها بأول ما استطاعت الاندفاع في حرد لا تقيده الضوابط، ولا تضبطه القيود.

وإذا قيل أن الخيوط الدقيقة التي يغزلها الطفل أثناء شيطنته سينسج منها إذا كبر أهم مقومات رجولته فإن رجولتي إلى اليوم لم يكتمل لها –فيما أظن– إلا بعض المقومات التي يعتقدها علماء النفس فهل في الغيب ما هو ألعن؟

وصادفتني في هذه الفترة التي تخطيت فيها الحدود، وأستمرأت الانطلاق.. مدرسة لها لونها وطابعها ومنهاجها في التأثير.. تلك هي مدرسة (ستي).

كانت ستي (جدتي لأمي) قد عاشت حياتها الأولى مضطهدة في بيت زوجها. فلما أطلق قيدها بموت زوجها عنيت قليلاً ببناتها منه، ثم زوجتهن وتحررت من كل ما يقيدها في الحياة، وأخذت على عاتقها أن تتسلى فيما بقي من عمرها بسجادتها وسبحتها، وتلاوة الأدعية والابتهالات التي كانت تحفظها عن ظهر قلب، تلقيناً عن العجائز اللواتي كن يخالطنها في (حصوة) النساء بالمسجد، أو خلف (حلقة العالم) بجوار زمزم.

كانت تحدثهم عن الصالحين الذين يمتطون متن الهواء بأجنحتهم والمقربين الذين يطوون البحر بأقدامهم، وأصحاب الخطوات الذين يصبحون في مكة ليمسوا في القدس، ويبيتون وراء جزر واق الواق.

وكان لها رأي خاص في (المدركين) بأركان الأرض، والمشرفين على أحوالها. وكانت تحفظ من حكاياتهم ما يثير العجب. فإذا آنست إنكاراً لما تروي، أو ارتياباً فيما تقص، جمعت سبحتها بين يديها، وتوجهت إلى الله بقلب واجف ألا ينزع الإيمان من الصدور، والتقوى من القلوب.

سمعتها مرة تقول إن أحد المتكبرين راعته –وهو يصلي في المسجد– وساخة جاره الفقير في الصف فاشمأز. فأراد الله أن يعاقبه، فسلط عليه الحدث فخجل من الخروج من المسجد المكتظ إلى حيث يجد ماء يتوضأ. فنظر إلى جاره الفقير. ثم فتح كمه بين عينيه. فشاهد المتكبر في الكم طريقاً نافذة مضى فيها إلى حيث وجد متوضّأً جدد فيه وضوءه، ثم عاد، فلما انتهت الصلاة تعلق بالفقير وقال

له: إنني أرجو سماحك كما أرجو أن أكون تابعك أضع عنقي حيث تضع رجلك. فقال الفقير: إذا كان ولا بد أن تعلم فإني خادم عند إحدى المومسات. فقال إني قبلت متابعتك إلى حيث تخدم فلما رافقه إلى بيت المومس وتطلعت من نافذتها لتراهما، قالت للفقير.. هل أذعت السر اذهب فأنت مطرود.

تقول ستي في تعليقها على القصة: إن المومس كانت من الصالحات والمقربات وأنها إذ تبيع جسدها للشهوة لا تريد إلا التظاهر بما يحقرها في نظر الخلق، ويقربها إلى الخالق.

فإذا قلت يا ستي لو وليناك حاكمة؛ هل تقيمين الحد على مثل هذه الزانية أم تتركينها؟ وتتركين مثلها خشية أن تكون من الصالحات المتظاهرات بالفجور؟

كنت أقول هذا فتصرخ في وجهي مستاءة :((يا ولد لا تعترض تنطرد)).

وإذا قلت: يا ستي إن هذا الفقير ألا ينهاه الدين عن الوسخ الذي يتقزز منه الناس؟ ويأمره بالنظافة؟ قالت: -(إن ربك رب القلوب).

فإذا قلت: ولكنه أمر بالنظافة، صاحت في وجهي (قم من قدامي يا قليل الحيا، انت ولد مجادل بطال). وكان استياؤها يزداد كلما جادلتها في أمر. ولكنها كانت تحبني رغم جدلي، وكانت تميزني دون بقية أحفادها بقصصها المخرفة، وكانت في بعض الأحايين تضحك ملء رئتيها من عقليتي الصغيرة وتسميني (الواد المتفلفس!!).

كانت تحفظ عن ظهر قلب أكثر سور جزء عم بالإضافة إلى سورة يس،

وسورة الواقعة، وكنت إذا سمعتها تقرأ فاض اعتزازي بنفسي –كقارىء حافظ– وشرعت أصلح لها كل كلمة تنطقها وأراجعها في كل حرف تحفظه. وكنت أقول يا ستي إن ما تقولينه ليس قرآناً لأنه ليس فيه كلمة صحيحة النطق. فكانت تسمع مني ثم لا تلبث إذا أعياها إخراج الحروف كما أنطقها أمامها أن تطردني (قم يا واد ربك رب قلوب!).

وكانت إلى جانب معلوماتها تلم بكثير من قصص التاريخ. ومن قصصها في التاريخ أن منارة باب الوداع كانت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم قائمة في باب السلام. فلما دخل النبي صلى الله عليه وسلم من باب السلام إلى طواف الوداع مشت خلفه وعندما خرج من باب الوداع كانت تتبعه. فلما التفت ورآها سألها إلى أين؟ قالت إني ذاهبة إلى حيث تذهب! ولكن النبي أبى عليها الذهاب. فبقيت في مكانها تبكي إلى اليوم؛ وكان من علامة بكائها أن نقوشها إمّحت ولم ينقشوها بعد ذلك دون سائر المنائر!!!

وكنت لا أدري أن المنائر لم تحدث إلا في وقت متأخر عن عهد النبي، لهذا كنت لا أجادل إلا في أسلوب المشي؛ لأني لا أرى للمنائر أرجلاً تصلح للمشي. فكانت لا تزيد عن أن تحدجني بنظرة طويلة، وتدعو الله لي أن يهديني ثم تعيد لازمتها: (قم يا واد ربك رب قلوب!).

ومن قصصها أن عين زبيدة في مكة متصلة بنهر دجلة في العراق لأن زبيدة زوجة الرشيد عشقها ملك الجان فاقترحت عليه عندما حجت أن يسقي مكة

من نهر دجلة فجمع الجان لبناء القنوات في العراق إلى مكة فجرى الماء إليها في ليلة واحدة وبقي يسقي المسلمين إلى اليوم.

ومن قصصها أن رجلاً وقعت عصاه في بئر بمسجد المدينة فوجدوها في بئر زمزم بمكة ذلك لأن ماء زمزم يجري من مسجد المدينة إلى مكة وإن هذا الماء ماء زمزم يختلط في يوم نصف شعبان بماء الكوثر في الجنة فيطفح البئر ويظفر الشاربون ليلتها بماء مصدره الجنة. كما أن قصصها تبحث النيل في مصر فهو ينبع من قبة على حدود الجنة.

وكأن إلمامها يتسع لكثير من شؤون الدنيا والدين. فكانت تقول إن النصارى يلبسون (البرانيط) لغرض خاص. فهم لا يريدون رؤية السماء حتى لا تلين قلوبهم للإسلام لهذا يسترون عيونهم عنها بحافة البرنيطة وتقول: إن المرأة المجوسية إذا اشتد الطلق في ولادتها وأرادت أن تهرع إلى الله جيء إليها بقربة ضيقة الفم وضعتها بين شفتيها وصاحت (يا الله)، ثم أطبقت على الفم وأبعدت عنها القربة حتى لا تدركها نفحة من لفظ الجلالة تهديها إلى الإسلام.

ومن أحاديثها –عفا الله عنها– قصة الثور الذي يحمل الأرض على قرنه، فإذا تعب أحد القرنين نقل حمله إلى القرن الثاني فتكون الاهتزازات والزلازل.

ومن معلوماتها حديث الجزر التي يسمونها واق الواق، وتقول: إن في أشجارها طلع يشبه رؤوس المخلوقات، لا ينفك ينادي (واق الواق.. سبحان الملك الخلاق)، وكانت تجوز عليّ مثل هذه الحكايات، ومن الغريب أنني

وجدت فيما بعد أن بعض الكتب المؤلفة كانت تروي هذه الحكايات، وتصوغها في قوالب تغشاها مسحة الصدق، وتسندها بهتاناً إلى أجلة من علماء الرواية والحديث.

وكانت رحمها الله تنهى عن كنس البيت على أثر خروج المسافر منه لأن ذلك يمنع عودته، وتوصي بصب الماء خلفه في اللحظة التي يخرج فيها من الباب لأن الماء أمان!! وكانت تنهى عن غسل الثياب يوم الاثنين لأن صحابياً فقد ولديه على أثر الغسل يوم الاثنين كما تنهى عن خياطة الثوب فوق لابسه أو كنس البيت أثناء الليل أو شراء الفحم في شهر محرم لأن ذلك كله (بطّال).. (وبس بطال) فإذا قلت (يا ستي) لم هو (بطال) صاحت في وجهي: (قم يا ولد.. أنت متفلفس)!!

احنا ناس زي ما نسمع من الكبار!! نقول طيب.. وما علمت رحمها الله أن مأساة المسلمين في بعض كبارهم الذين ظلوا يسمعون منهم وهم يقولون طيب!! دون أن يناقشوا حقيقة هذا الطيب أو يبحثوا مصادره الصحيحة.

وكانت ستي تفرض على كل من يخلع سنه من أحفادها أن يرمي به إلى وجه الشمس وهو يهيب.. يا شمس يا شموسة خذي سني واعطني سن العروسة!!

وكانت رحمها الله تحفظ لكل مناسبة قصة.. تروي بعضها عن الأنبياء، وأخرى عن الأولياء، وغيرها عن غيرهم وكانت قصصها تمتاز بالمبالغات التي تشبه هوايتها المتطرفة في المغيبات وما وراء المحسوسات.. كانت تقص عن

الخضر عليه السلام آلاف القصص التي يحفظها عجائز جيلها؛ وليس فيها ما يثبت في النقل أو يخضع للعقل، ولكنها مجذوبة ترضي وجدانها، وتنافق أعصابها كما يفعل المتفيقهون من أصحاب الأفهام المكدودة، والأذهان الضيقة.

وكانت تحدثني عن الملائكة والجن أحاديث لا أدري كيف توافرت لها مع أميَّتها. وإنه ليأخذني اليوم العجب من تلك الحافظة التي استطاعت أن تعي كل هذه المعلومات، وأجدف على الظروف التي لم تهيئ تعليمها على أسس صحيحة. وأسائل نفسي: ترى أي مدى كانت تبلغ من العرفان لو تهيأت لها دراسة مستقيمة؟؟

–أكبر ظني أنه سيستوي منها عالمة من أروع المتعلمات، وأن ربح أولادها وأحفادها من معارفها سوف لا يوازيه ربح في الحياة، ولكن سوء الحظ إلى جهل المسؤولين بها أبي إلا أن يترك ظروفها عاطلة من أسباب التعليم وأن يحيطها بالمنهل الوحيد الذي نهلت منه معلوماتها الخاطئة وخرافاتها الضالة، وتركها تهيئ أولادها لأسوأ ما يتهيأ له الناشئون.

وكانت ستي تعرف عن (الدجيرة)[8] و (هول الليل) و (السبع الجنيات) ما لا يعرفه قصاص نابغة! فكنا نقضي حولها الليالي نستمع إلى حكاياتها، ونتعلم

(8) – قلت (الجامع لمقالات الاستاذ السباعي) : الدجيرة هي سيدة من سيدات الجنّ حسب الاعتقادات الشعبية في الحجاز ، وتوصف بأنها تغوي شباب الأنس (متربصة الرجال) فلا يكاد يلمحها رجل وهو في طريق ذهابه أو إيابه إلا وهام بها، وبحسب بعض الروايات فإنها لا تكتفي بحالة الافتتان التي توقعه بها، بل أيضا تترك بصمتها على جسده ، ورجليها تشبه رجل الحمار ، أما (هول الليل) فهو خال الدجيرة وشقيق الهمية وصهر البعبع ، وهو يشبه الغول في الأدب العربي القديم .

منها غوائل الليل وعجائبه في صور تركت في تربيتنا أسوأ الآثار، وملأت أعماقنا بالعقد التي عجزنا إلى اليوم عن حل أكبر طائفة منها.

وكنت أجد في استعدادها للتخريف أوسع فرصة ألفق فيها ما شاء إلي التلفيق، وأخترع لها ما يحلو لي من اختراع.

كانوا يكلفونني ببعض الخدمات في الليل خارج البيت، فكنت لا أعصي، ولكني لا أكاد أخرج إلى (طرف الزقاق) حتى أتصنع الذعر، وأعود إلى البيت لاهثاً؛ لأني (رأيت الدجيرة بعيني تناديني!.. تعال يا ولدي.. تعال يا حبيبي.. ورأيت إحدى رجليها تشبه رجل الحمار). أقول هذا على مسمع من (ستي) لأن ثقتي في أعصابها المتوترة لا تعادلها ثقة. فلا أكاد أنتهي مما ألفق حتى تأخذني في أحضانها ثم تهيب بهم (والله صحيح.. هادا الواد عينه كشافة!!.. هادى صحيح أوصاف الدجيرة!. لا ترسلوه مرة ثانية إذا أظلم الليل وخلونا مستورين!!) وهكذا أنجح فيما لفقت على حساب أعصاب ستي، وأنجو من الخروج إذا تكاسلت عن الخروج.

وعلى حساب أعصاب (ستي) انتفعت بالكثير، فقد كنت إذا أغضبني أحد في البيت تصنعت ما يشبه التشنج، وأتيت ما يشبه حركات المجانين حتى إذا هدأت أسررت إلى (ستي) أنني أرى شيئاً يتراقص بين عيني إذا غضبت. فلا تلبث أن تتأوه حزناً عليَّ وتقول لي: (هذا أخو رأسك لا يحب الزعل) وبذلك أشاعت ستي أن لرأسي أخاً لي لا يحب الزعل!! وراحت تمنع كل من في البيت

من إزعاجي. فأصبحت سيداً في البيت عتياً.

ومرضت المسكينة مرة فكانت لا تطعم غير ماء زمزم، فكنت مكلفاً بحمل الدورق إلى المسجد لملئه بماء زمزم عدة مرات في اليوم فلما طال تكليفي، وأرهقت صورت لي (شقاوتي) أن أستفيد من أعصاب (ستي) فجئتها مرة وأنا ألهث من الفزع ولا أكاد أفصح الحروف من شدة ما نالني وقلت: (يا ستي. رأيت يداً تمتد من الجدار المحفور بجوار باب الدرج في المكان الذي نضع فيه المفتاح الكبير.. رأيتها بعيني تمسك الدورق الذي ملأته لك من زمزم وتقبض عليه فسحبته بقوة وجئت أجري!!).

فقالت –(يا ولدي: قلت لك أن عيونك كشافه، وصاحب اليد لا بد من الشياطين الذين لا يحبون ماء زمزم!!).

قلت: (ولكن اليد تشبه يد الشيخ (..) تمام الشبه.!!

وكان الشيخ (..) الذي أردت الإشارة إليه من أقرباء (ستي)، وكان قد حدث بينه وبينها بعض النفور رغم أنها تعتقد صلاحه.. فتنهدت ستي وقالت: (نعم يا ولدي.. هو زعلان مني، ولا بد، ما يبغاك تجيب لي زمزم.. على كيفه!.. والله أنا أحبه، ويشهد علي ربي أني سامحته.. وانت بلاش تجيب زمزم حتى أشوف خاطر الشيخ)..

وهكذا أبت (شقاوتي!) إلا أن أحرم (ستي) من شرب زمزم طعامها الوحيد يوماً كاملاً حتى تهيأ لها غيري واسترحت.

ولا تستطيع (ستي) أن تفرق بين منع ماء زمزم إذا أحضرته أنا، وأباحته إذا أحضره غيري! ولا تعرف هل زعل الشيخ كان لمنع ماء زمزم؛ أم لمنعي شخصياً من حملها!.. لا تستطيع المسكينة أن تميز هذا، لأنها تمضي فيما تعتقد بدافع من أعصابها الحادة. أما عقلها فليس له مجال في كل ما تعتقد شأن المجذوبين الذين ورثت أعصابهم ما اعتقدوه؛ فأغلقوا أفهامهم عن مجال العقل في ما ورثوا.

تلك هي مأساة المسلمين في كثير من عصور التاريخ، قبل أن تكون مأساة (ستي)!! حدثت ستي مرة فقالت: كنا مدعوين ليلة في الزاهر، فجاء ولدي بحمار لأركبه إلى الزاهر، وكان الوقت بعد العشاء الأخيرة، فلما ركبت الحمار ومضى ولدي يمسك بقياده مضينا حتى انتهينا إلى نهاية العمران من مكة؛ فشعرت بالخوف يراودني؛ لخلو الطريق من المارة، فأمرت ولدي أن يقف بي عند قبر الشيخ محمود بن الأدهم، ثم قرأت الفاتحة له، وقلت ما في قلبي!! ومضينا؛ فلم نبعد إلا قليلاً حتى راعني بدوي حاسر الرأس حافي القدمين، يواكب سيرنا كأنه مكلف بحراستنا فزاد رعبي لما رأيت، ولكني تجلدت وصار البدوي يلازمنا دون أن ينبس بحرف، حتى انتهينا إلى الزاهر فاختفى.

قلت يا ستي: وهل علمت أن ولدك كان يرى البدوي الذي كان يلازمكما؟ قالت: إني سألته فأكد أنه لم يره فكنت أعجب لمثل هذه الظاهرة. ولكني اليوم لا أرى مكاناً للعجب بعد أن ثبت لي أن أعصاب ستي لا تعجز عن تكوين

المستحيلات.

واجتمعت مرة بستي مع بناتها وحفيداتها في بيت قريب لها فاقترحوا عليَّ عمل الفأل..

وكان لعمل الفأل عند ربات بيوتنا كتيب يسمونه (قرعة الأنبياء) يحتوي على تراجم في نبذ قصيرة.. لكل نبي نبذة خاصة يترجم حياته، وما لاقى بين قومه، وقد صدر الكتاب بفهرست يحوي أسماء الأنبياء، ورقم الصفحة التي تجد فيها ترجمة كل نبي.. وكان على طالب الفأل أن يقرأ الفاتحة ثم يغمض عينيه ويضع إصبعه على أول اسم يصادفه في صفحة الفهرست، ثم يبحث عن ذلك الاسم فيقرأ الترجمة ويأخذ فأله منها.

فلما جيء إليّ في تلك الليلة بذلك الكتيب بدأت أقرأ لكل سيدة منهن فألها على ضوء الاسم الذي تضع عليه أصبعها، وكان صاحب البيت يجلس في تلك الآونة على كثب منا، في نفس الغرفة التي نجلس فيها، منهمكاً في أعمال خاصة به فكنت أراه كلما التفت إلينا استهجن ما نعمل، وأزدرى قلة إتقاني القراءة فعنَّ لي أن أنتقم منه بطريقة صبيانية، فقدمت الكتاب إلى زوجه فلما وضعت أصبعها على الاسم الذي وضعت عليه كشفت الصفحة المختارة كما يكشف علماء الرمل، وشرعت أقرأ الصفحة. فلما لم أجد ما يسيئها، أو يسيء إلى زوجها الحاضر، بدأت ألفق نعوتاً لزوجها وأوصافاً لا وجود لها في الكتاب. فقلت: (إن لزوجها لحية مثل التيس، وقروناً مثل قرون البقر، وصوتاً مثل

صوت الحمار) وأشياء كثيرة لا أدري كيف تلقفت لي.

وكان الشيخ يسمع كل هذا دون أن يعيرنا لفتة، ولكنه عندما رآني أتمادى دون حياء، ورأى النساء ينصتن إليّ، ولا يخالجهن ريب في صحة ما أقرأ أقبل عليّ في هدوء ووقف حيث تبدو الصفحة التي أقرأها أمامه، وقال: (أرني الكلام الذي تقرأه) فسقط الكتاب من يدي، وتولاني من الذعر والخوف ما ألجم لساني.

وعندئذ جاء دور ستي.. وبدأت أعصابها تسيطر على الموقف. قال لها (إن هذا الولد من فين جاب هذا الكلام اللي بيقوله؟.. خدي هذا الكتاب وقولي له يوريني كلمة واحدة من الكلام اللي بيقراه. هذا ولد قليل أدب وأنتم ناس زي الحمير ما تفهموا شي!. فين الكلام اللي بيقراه).

فصرخت ستي في وجهه –وكانت لها دلة على جميع أقربائها– صرخت في وجهه: (كل هذا صحيح، لكن، الكلام ما يقعد في الكتاب.. أصله كلام الفال يطير في الهواء ويجي غيره.. نعم هو فال والا.. شي تاني).

وهكذا كانت ستي مقتنعة، لأنها ورثت ما تعتقد بأعصابها، دون أن يكون لعقلها دخل فيما تناقش!!

وقد أفادتني أعصابها؛ لأن بناتها وحفيداتها بما فيهن زوج الشيخ لم تجرؤ واحدة منهن على معارضتها.

أما الشيخ فقد جر أقدامه إلى حيث كان يجلس.. ويبدو أنه رأى نفسه أكبر

من أن يجادل حميراً آدميين، ويضيع وقته في ترهات صبيانيه.. لا تستحق الجدل.

عفا الله عنك يا ستي في دار الخلود؛ فقد كانت سذاجتك أسوأ معلم ربانا على التخريف، ودس في بواطن أعماقنا ما لا نزال إلى اليوم رهن أساره رغم ما نحاول من علاج.

عفا الله عنك فإن في ذكراك أبلغ مثل للتدليل على حاجتنا إلى تعليم نسائنا ما يفرضه الدين، وإعدادهن، إعداداً مستقيماً يساعدهن على تربية أولادهن، وإنشائهن إنشاء قديماً.

(11) طيش

وعندما تخطيت الحلم، وأوشكت فتوتي أن تستوي، بدأت أشعر في صلف أنني شبيه رجل، وأن من حقي أن أوجه حياتي في السبيل الذي أختار. فأذعنت أمي مشفقة.. أما ستي فقد كانت ترى غير رأي أمي (ما بوشي.. خليه لا يروح المدرسة على كيفه.. هو ما هو ناقصه شي.. عمال يقرأ –الله يحفظه– في أحسن كتاب زي البلبل. يا ريتكم سمعتوه وهو يقرا لي حكاية سيدنا علي، وحرابته مع الجن اللي نزل وراهم إلى سابع أرض وخلاهم يسلموا.. قراية! الله يفتح عليك يا أحمد يا ولد جواهر.. هو إيش مقصودكم يعني؟.. هو لازم ينزل بدال المنصوري يسوي عالم في الحرم.. يكفي يا جماعة.. خلوه يروح على كيفه.. يشوف له صنعه يأكلكم منها) وبذلك صدر القرار حائزاً موافقة ستي!! بتسريحي إلى السوق، وإطلاق حريتي في اصطناع ما أرى. على أن أكفي البيت مؤونته، وأسد عوزه وحاجته.

وما كان لستي أن تعلم أن عوزي إلى الانطلاق، وإشباع رغبتي في (برحة المروة) التي عشت محكوماً بالحرمان منها، وترك حبلي على غاربي بين (العيال المطاليق) هو أقصى ما يملأ مخيلتي وأن تذرعي باصطناع ما سأحترف لسد حاجة بيتي ليس إلا وسيلة تعينني على الانطلاق، وتبيحني من الفرص أكبر قدر تبيحه (للعيال المفلوتين!!).

صدر قرار ستي بتسريحي، ثم أشفع بتوصيات حاسمة (قومي أعطي له واحد

جنيه من العلبة، وسيبيه يعرف شغله.. يا طلع رجال، وعرف كيف يجيب القرش زي أولاد خالته، يا طلع ندل، وفضل مضحكة للناس!!).

وقامت أمي إلى علبتها الصغيرة، خاضعة في غير اقتناع ثم سلمتني الجنيه وهي تهيب بي:

–لكن ما تقول إيش الصنعة اللي بدك تسويها؟؟

–بس أنت مالك شغل.. قولي لها يا ستي.. هيا تعرف حاجة في الدنيا!! قولي لها اسكتي مالك شغل.!!

ولم تنطق ستي بحرف لأنها كانت قد بدأت وظيفتها في السبحة (يا لطيف، يا لطيف، يا لطيف)، ويدها تشير إلى أمي في إلزام وتصميم أن تعطيني الجنيه ثم ترفع سبابتها اليمنى إلى السماء وكأنها تقول: (عليك يا رب).

وأعتقد أن الله لم يخيب رجاء ستي فيما توجهت، ولكنه لم يستجب لضراعتها إلا بعد حين طويل. تسلمت (الجنيه) وأنا أعدو في خفة المجانين إلى الدرج، وما بلغت باب الشارع حتى وقفت أعيد النظر في ما كان، وأدققه فيما يكون.

كان أول (جنيه) تسلمته يدي، وقبض عليه كفي فما أروعه وما أبدع لونه الصافي، ولمعته البراقة، وجماله الناطق!!

ما أدهش قوته الحافلة، وثروته الحاشدة، وقيمته الغالية!.. إنك ملكي أيها (الجنيه!). وأنني سأمتطيك إلى ما أشتهى.. فما رأيك؟ وبادرتني فكرة. هل

سأترك الجنيه في كفي معرضاً للضياع؟ أم أضعه بين طيات حزامي فلا آمن عليه من الجري والعدو؟؟ أم أضمنه الجيب في ثوبي فلا يبعد أن يسقط، أم أربط عليه في طرف إحرامي فأنساه لو نسيت (الإحرام) في غمرة اللعب؟؟

ما يمنعني أن (أصرفه مجيديات) أضع في حزامي بعضها، وأدفن البعض الآخر في زاوية من دهليز بيتنا؟

استصوبت الفكرة فأخذت سمتي إلى الصيرفي، ولكن الصيرفي ما كان ينقده حتى تبين فيه بعض الزيف فرمى به أمام وجهي دون أن يشفق على فجيعتي في لونه الصافي، ولمعته البراقة، وجماله الناطق!!

وعندما انتقلت إلى صيرفي آخر، وآخر، اقتنعت بأنه لا بد لي من بيعه بما يساوي حالته الراهنة فقبضت خمس مجيديات بدلاً من سبعة. وعدت إلى دهليز البيت فدفنت البعض، وضمنت البعض الآخر حزامي، بعد أن اشتريت كيساً ينتهي بكتلتين أودعته نقود الحزام، وتركت الكتلتين تتدليان من طرفَي الحزام في رشاقة أحسن (يعسوب) من حارتنا.

وراعني كف دافىء يضرب على كتفي: (حيا الله أبو زامل!! هيا يدك على مجيدي.. شوف العيال عندهم سليق في الشهدا يدك على نص مجيدي لأجرة الحمار، والنص الثاني للباي ها.. معانا؟).

-أيوه معاكم.. واللي ينزل من السماء تستلقاه الأرض.

نعم سأكون معهم. ولكن ما الحيلة الليلة في أمي وستي وقد أمستا تنتظران

مكسب الجنيه وأن يعرفا نوع المهنة التي اعتزمت احترافها.!

دفعت (المجيدي) إلى صاحبي، ووعدت أن أوافيه حيث يجتمعون، ثم انقلبت إلى أمي:

(شوفي يا أمي.. هذا ريال مكسب اليوم.. ها.. يا ستي اشتريت حوائج من الحراج، وبعتها في ساعتها كسبت ريال واحد.. إيش تقولي.. ها.. شاطر؟؟).

–شاطر والله يا ولدي.. روح الله يكسبك!!

–كمان إسمعي.. الليلة **14** في الشهر..

وفي الحراج جماعة عزموني، عندهم ولد في الشهدا.. إيش تشوفي.. أنا والله خايف يزعلوا إن كان ما رحت.. كمان أروح أبات الليلة هناك أخاف تزعلي أنت.. والا تزعل أمي.

–والله يا ولدي إن كان ناس طيبين روح. بس خليك رجال عند نفسك.. ما ينفعك إلا رجالتك.. وأمك ما تقول شي ما دام العزيمة مولد.. شي لله يا أهل الله وتلتفت إلى أمي في عزيمة صارمة: أعطي له فراشه، خلي الواد يماشي الناس.. ويعرف كيف يسوي رجال.. أعطي له الفراش.

وتعطيني أمي بعض الفراش الذي سأتوسده في ليلتي، وهي تنظر إليَّ مرة، وإلى ستي أخرى.. نظرة الحائر، الذي لا يدري الخير فيما يقدم.. أو فيما يؤخر.

وتقلنا الحمير كما تقل الصافنات الجياد فرسانها.. ولم يكن لي قبل اليوم عهد

بركوب الحمير، فقد عشت مع والدي لا أعرف غير المدرسة بعد الكتَّاب، والمسجد بعد خالتي حسينة، ولكنني أبيت إلا أن أثبت فوق صهوة الحمار، وأعلن من فتوتي ما يؤهلني لمخالطة هذا الصنف القاسي من الناس. وقد اختل توازني فوق صهوة الحمار أكثر من مرة. فكنت أتشبث ببرذعته في إصرار العنيد.. وألقاني مرة على الأرض فاستشاط غيظي، وانقلبت ألهب الحمار بخيزرانتي، كما يفعل (المشاكلة) إذا عثرت بهم رجل الحمار!!

وانتهيت إلى وادي الشهداء (الزاهر) فكانت ساحته المتسعة باتساع ما يمتد إليه النظر غاصة بجموع لا يحصيها العدد..

كانت كل مجموعة تستقل جهة في الوادي على ضوء مصباح، أو مصابيح خاصة بها، وتترك نارها تشتعل تحت قدور طعامها. بينما ينتشر بعض أفرادها في امتداد الوادي يلعبون (الكبت)[9]، أو يتسابقون في العدو والقفز ويجلس المتعلقون إلى ضوء المصابيح يلعبون الشطرنج أو يتنقلون بين مجلس حسن جاوي تحت بيت الفنتيانة أو مجلس صالح الحلواني بالقرب من مقعد بيت العراقي.

---

(9) – قلت (الجامع لمقالات الاستاذ السباعي) : الكبت وهي لعبة عنيفة نوعاً ما، وغالباً ما يلعبها الأقوياء من شباب الحارة، وتعتمد على سرعة الحركة والمهارة في المحاورة وعدم تمكين المهاجم من الفريق الآخر لمس فرد من الفريق المواجه، ويشترك في لعبها بضعة أشخاص ينقسمون إلى طائفتين، ويكونون متقابلين بينهما مسافة نحو عشرة أمتار، ويخطون في وسط الفضاء خطاً في التراب، فيخرج واحد من إحدى الطائفتين إلى الطائفة الأخرى، ويمد يده باحتراس، ويقول: (شيد البيد البيد)، ويكررها، فإذا لمس أحدهم وهرب ولم يمسكوا به، تعتبر طائفته هي الغالبة، وإن أمسكوه يخرج من اللعبة وتعتبر طائفته مغلوبة. نقلاً عن الويكبيديا.

كانت ليلة أبحتها جميع مشاعري، فلم أترك لعبة عنيفة إلا شاركت فيها، أو مسابقة خشنة إلا كنت المجلّي فيها. حتى جاء العنف، وجاءت الخشونة على أثوابي فمزقتها، وتركتني أضحوكة بين رواد الوادي وسمَّاره.

ولكني أحكمت الصلة بأكثر (العيال في بشكتي). وتعرفت بعدد غير قليل من أفراد المجموعة التي كانت تحتشد بها الأماكن القريبة منا في الوادي.

ورأت أمي ثيابي الممزقة، من أثر الكبت فأرادت أن تبرهن بها على ما تعتقد من شقاوتي، والكبت لعبة ينقسم اللاعبون فيها إلى فريقين في أحد الميادين يفصل بينهما خط مستقيم وينتدب الفريق أحد لاعبيه ليقتحم القسم الآخر وراء الخط ويناجز من فيه فإذا استطاع أن يضرب أحدهم ولو لمساً ثم يتخطى الخط القاسم دون أن يقبض عليه اعتبر الشخص المضروب ميتاً وغادر اللعب أما إذا استطاعوا القبض على المقتحم قبل أن يتخطى الخط عائداً فإنه سيكون هو الميت في عرفهم وبذلك ينقص عدد اللاعبين واحداً.

وعلى هذه الوتيرة يستمر النقص في الفريقين حتى إذا فقد أحد الفريقين أنفاره عن آخرهم اعتبر الفريق مغلوباً.

وفي استطاعتهم أن يستأنفوا اللعب من جديد وهي لعبة تمثل الفروسية في أعلى مظاهرها إذا استطاع المختصون تهذيبها وتشذيب ما يشوب فصولها من عنف. استطعت أن أقنع ستي بأن أثوابي كان قد أنهكها القدم، وجعلها قابلة للتمزيق.

وزاد اتصالي بعدها بكثير من (العيال المطاليق) في حارتنا، وفي بعض الحارات الأخرى التي تحالف حارتنا، واستطعت أن أتسلط بمهارة على جزء طيب من علبة (الجنيهات) التي كانت تحتفظ بها أمي. لأني كنت أدعي أن أعمالي في الحراج قابلة للتوسعة، وأن بعض العيال يشاركونني بأموالهم، وجهودهم.

ولم تكن هناك أعمال في الحراج. بل لم يكن ثمة (عيال) إلا المطاليق الذين لا يشغلهم إلا أخبار الحارات المجاورة، وقصص (المشاكلة) في ضرب العصا.

وكنت أسخو لأمي ببعض الريالات في بعض الأيام، بدعوى أنها أرباح تدرها أعمال الحراج.. كنت آخذ الجنيهات بيميني، وأقدم بعض الريالات بشمالي.. بدعوى أنها ربح تبيح لي التوسع في بعض (الجنيهات).

ولم أدم على ذلك طويلاً، فقد كان موجود العلبة محدوداً، وكانت أمي تكرر أمامي حساب الموجود، كلما نقدتني جنيهاً واحداً، وأضع يدي على مبلغ الخطر الذي يدنو منا كلما قل عدد الجنيهات في العلبة؛ ولكني كنت مشغولاً عن حسابها (بشقاوتي) وما غمرتني به (بشكتي) من الطيش. كنا نقضي نهارنا في مداخل برحة الفل بجوار المسعى نهزج بأغانينا: (يا لعشرة من قال لك تجاكر.. يا لعشرة قل للحجر يمشي) والعشرة فيما علمت أحد (المطاليق) وهو يوازي عشرة (مشاكلة) وكان من غير حلفائنا في الحارة وقد أغرته (شطارته) فحرك إحدى الحجارة على حدودنا في الحارة فأعطيناه الدرس القاسي وجعلناه أغنيتنا: (يا لعشرة من قال لك تجاكر بالعشرة.. خل الحجر يمشي).

وكنا نقضي أمسياتنا في ظل من برحة المروة تحت دكان أحد (بشكتنا) من أولاد المزينين نسأل عن موكب الزواج في بيت الفلمبان، هل سيتخطى حدود حارتنا؟ –(أبداً. شوف يا واد طاهر أنت، وبطنجها، والواد أبو رأسين.. وخذوا معاكم أبو سنكيت، والأشرم، وولد الدحدح، واستنونا عند رأس الحدود.. خليكم مدسوسين ورا الطاحونة اللي هناك. وأنا وسحلول، والمطبقاتي، وأبو عروج.. نمسك رأس الخرابة اللي جنب الطاحونة.. من يوم ما نشوف السرجة حقت الجواز مقبلة نصفر لكم.. إن كانت وصلت الحدود وطلعت على فوق وما دخلت على حدودنا كفى الله المؤمنين.. وإن كان لا والله حطوا رجلهم عندنا.. دغري يدنا والحجارة اللي في الخرابة على الفوانيس، والشمعدانات والأويزات وخليناها دشمان. لا يسير الدشمان حتى تكونوا انتو في وسط الميدان.. طيحوا بالعصى زي ما يكون.. في رؤوسهم، في أكتافهم في عيونهم.. المقصود واحد منهم لا يدخل الحدود.. ها. إيش قلت يا واد دحدح: وإنت يا أشرم.. تمام).

خلاص تمام.. عيالك عيال!! ويكون (الدشمان) ويكون ضرب العصا في سبيل الحدود كأننا في خط ماجينو بين الفرنسيين والألمان. [10]

وكنا في دكان المزين لا نترك ضعيفاً يسلم من أذانا، كنا نغطي أحدنا بما يشبه الملاءة ونجعله في باطنها كالصرة، ثم نطلب من بعض الحمالين أن ينقل هذا

[10] وقد علمت فيما بعد أن مثل هذه الترَّهات الصبيانية لم تكن قاصرة علينا وحدنا فقد كانت شائعة في معظم عواصم الشرق العربي قبل أن تتحضر الحياة وينتشر التعليم.

الحمـل في (الزنبيـل) بأجـرة نفاوضـه فيهـا فـإذا وضـعنا صـاحبنا المصـرور في (الزنبيل)، ونقلناه على رأسه بدأت الصرة تتحرك وبدأ العفريت يقفز في براعة مـن الزنبيـل على الأرض فيجـري المسـكين في هلـع، تاركـاً (زنبيلـه)، ونبقـى في أماكننا مسرورين بإبداعنا.

وكنا ندعو حاملاً آخر فيأخذه أحدنا إلى أول بيت يصادفه حتى إذا دخل به الدهاليز انفتل عائداً في خفة وأقفل باب البيت على الحامل الذي تركه يصرخ ليـزعج السـكان، والجـيران حـتى يطلقـوه مـن حبسـه، فـإذا انطلـق خـرج مغيظـاً يستبد به الحنق، بينما نشرف عليه نحن من حيث لا يرانا؛ لنضـحك مـن حركاته ملء صدورنا.

وكنت شخصياً من أكثر العيال (شقاوة) وأميزهم وقاحة، وكانت لي عصاة مدهونة بذوب الشحم معدة للأيام السود. وكنت كثير العبث بها لا أترك دكانة إلا (أخبطها)، أو كلباً إلا أضربه أو حماراً إلا ألهبه، أو جملاً إلا أوكزه.. فكنت لذلك أشتبك مع الجمَّال أو الحمّار أو صاحب الدكان في علقة حامية. وكنت لا أظفر فيها إلا في القليل النادر!!

(12) حظ معاكس

وأعلنتني أمي في ذات أمسية أن (الجنيهات) في العلبة أوشكت على النفاد، وأن الجنيه الذي ستنقدني إياه اليوم سيكون آخر جنيه يمكنها أن تقدمه إلي.

كان صوتها هادئاً رزيناً، وكانت كلماتها تؤدي معاني الصرامة والجد أكثر مما تؤديه من معان أخرى، فشعرت أن نبرات صوتها تلمس وتراً خفياً في أعماقي، وأن مشاعري بدأت تستيقظ على هول المفاجأة، وتحس بأحاسيس أمي.

وتناهى إلى سمعي صوت (ستي) من مصلاّها في غرفة أخرى وهي تبتهل في انكسار وخشوع –(إلهي يهديك يا أحمد يا ولد جواهر، ولا يشمِّت فينا عدو) فكان لابتهالها أثر السحر في إحساسي المتبلد، شعرت على أثره أنني أصحو من غفوة، وأن ضميري يهمس في سري :((ماذا بعد هذا الجنيه يا أحمد؟؟ وهل في استطاعتك أن تشمخ بأنفك بين رفاقك إذا أعوزك النقد، وأصبحت خالي الكيس؟؟ وهل بين هؤلاء الرفاق من يتطوع بنجدتك إذا ألمت بك الحاجة، أو يرفع من هامتك إذا أذلك الفقر))؟؟.

أفكار ساورتني وأيقظت مواطن الإحساس من نفسي.. رأيتني بعدها أقرر شيئاً، وأنشط لتنفيذ ما قررت.

بكرت في صبيحة اليوم التالي إلى سوق الجملة للخضار والفاكهة (الحلقة) على أمل أن أضع الجنيه في بضائع بالجملة أستطيع توزيعها فيما بعد مفرقة فلم أجد زبوناً لما اشتريت إلا بأقل مما دفعت، فلم أيأس، وعاودت الكرة يوماً بعد يوم: فلم يكن حظي بأوفر منه في اليوم الأول.

واستأنفت نشاطي في سوق (الحراج) فشعرت أن (الجنيه) رأسمالي الوحيد يأبى إلا أن يفشل في التجربة الثانية كما فشل في التجربة الأولى.

وقيل لي أنك لو حاولت تجربة نفسك في بيع (الغاز) لكان أضمن لرأسمالك

الصغير فجربته فأبى الحظ أن يواتيني في بيعه، ولاحظت أن الزبائن تزدحم على غيري بجواري دون أن تشعر بوجودي إلا في اللحظات القليلة التي تنفد فيها بضاعة هذا الغير.

وإني لأذكر الساعة تلك الأيام التي آلمتني فيها الصدف السيئة، وأذاقتني من عذابها ألواناً، وأسائل نفسي أكان ذلك هو الحظ العاثر بمعناه الشائع بين الناس؟ أم أن في الأمر مصادفة لا يربطها بخرافة الحظ رابط؟

ويسلمني هذا التفكير إلى البحث فيما قيل عن الحظ فأسائل نفسي: أهناك شيء يقال له حظ؟؟ أم هي تعلُّلات تخيّلها الفاشلون كتسلية يسرّون بها عن أنفسهم المثقلة بهموم الحياة.

الواقع أن (ستي) كأستاذة لها قيمتها في تربيتي الأولى كانت لا ترهق تفكيرها بمثل هذه الشكوك والمحاولات.. فقد كان الحظ في نظرها حقيقة لا محل للجدل فيها، وكانت تستدل على وجوده بآلاف الأمثال الناطقة في حياة من يحيط بها من المحظوظين والبؤساء.

وكان لا يكفيها أن تضيفه إلى بند المعنويات في الحياة، بل تجرؤ على اعتباره كائناً حياً، أو ما يشبه الحي؛ لأنه كان يصادفها في الكثير من أحلامها فتتعرف عليه وتفهم من أوضاعه في أيامها كل ما تريد أن تفهمه، وكانت تقول: إنه يبدو لبعض الرائين في أحلامهم في صورة عبد، وفي ذلك ما يدل على اضطلاعه بخدماتهم؛ كما يبدو أحياناً في صورة سيد مطاع.. وفي ذلك ما يدل على شقائهم بخدماتهم له.

كل هذه الخرافات كانت في نظر (ستي) حقائق من العبث أن تجادل فيها. فكنا لا نملك أمامها إلا التسليم بما في التسليم من نعومة بال وطمأنينة.

أما اليوم وقد فقدنا التسليم، واتسعت آفاقنا باتساع مداركنا.. فإننا نعاني

من اضطراب البحث، ودقة أسراره ما حرمنا الطمأنينة، ونعمة التسليم.

نحن اليوم أمام مغيبات في الكون وأحاجٍ لا ينتظمها قانون. فهل نحيل فكرة (الحظ) إلى واحد من أنواعها؟ أم نتريث، ونأبى إلا أن نسميه خرافة فيتسع الخرق؛ ويتعين أن يسمى كل ما يخرج على نظام الكون خرافة؟

قد يصادفني إنسان ثقيل الظل فأعجز عن تتبع أسباب الثقل فيه، وقد يغريني التتبع بدراسة أخلاقه؛ لعلّي أجد فيها عيباً يبرر ثقل الظل الذي أشعر به فأجد أن عيوبه قد لا تزيد عن عيوب زيد وقد يكون هذا الزيد خفيف الظل جميل الروح رغم ما في أخلاقه من عيوب فمن أين كان الثقل في الظل؟ وكيف جاءت الخفة في الروح؟.. لعلها أسرار روحية دقيقة تتعذر دراستها كما تتعذر دراسة حقيقة الحظ؟ فهل أسلم بهذا أم أنكره؟ أم أواصل بحثي فيما يعجز عنه البحث؟؟

رحم الله ستي فقد كانت عقليَّتها المحدودة أدعى إلى الطمأنينة ونعومة البال!!

ولازمني سوء الحظ، أو صدفه السيئة كلما احترفت مهنة، أو حاولت عملاً حتى رق لحالي أحد أقربائي فهيأ لي دكانة صغيرة ومنحني قليلاً من المال، ونصحني أن أجمعه إلى ما بقي عندي من أنقاض الجنيه السابق.. فأنظم به بقالة محدودة؛ عساني أستطيع النجاح النسبي في ما يكون.

وبدت الفكرة وجيهة في نظري بعد أن يئست من محاولاتي السابقة، وبعد أن سئمت من مجاراة رفاقي.. الذين كنت أتعشق (شقاوتهم)، وضلال حياتهم.

بدت الفكرة وجيهة في نظري، لأني أملت أن أستقر في مقعد مقيم، وأن أربط حياتي بمستقبل الدكان، وألهو بأعماله عن جميع ألوان العبث والطيش؛ التي كانت تربطني برفقة السوء، في الحارة.

هيأت الدكان، وزوّدته بما أملك من إمكانيات، ورحت أدعو الله في سري أن

يجعله نقطة فاصلة في حياتي، ولكن الله جلت عظمته كان قد أراد لشأني غير ما أريد، وهيأني لغير ما أعددت فلم تبدر علامة لنجاح الدكان، ولم أجد من إقبال الزبون ما يغريني بالثبات، أو يحملني على الاستمرار.

وكنت لا أميل إلى إفشاء أسراري. ولا يعجبني شيء ما يعجبني أن أجالد، وأن أتجمل أمام من يهمه أمري من عدو أو صديق.. فكنت أبدو أمام رفاقي القدامى تويجراً لا يعاكسه النجاح، وأبدو أمام ستي، وأمي رجلاً يخطو في مدارج الظفر، أما قريبي الذي وجهني إلى ما كان. فكان لا يعرف من حقائقي إلا ما يستحق التقدير والإكبار.

وكنت أقاسي في غمرة المجالدة والتحمل على هذا النحو ما لا يقوى على احتماله إنسان.

وكانت مكة تحتفل بعيد (المحمل) المصري والشامي فكان يحلو لي العبث بحراس المحمل ومشاكسة الحجاج الذين يتبركون به وكنت أقص طرفاً من أعمالي على ستي فتزجرني لأن المحمل عندها مركب السيدة فاطمة الزهراء فلا ينفعني الزجر.

كان المحمل كناية عن هودج تعلوه قبة عالية في شكل هرمي وكانت حكومة مصر ترسله سنوياً كرمز لقافلة الحج المصري فيدخل مكة على ظهر جمل خاص به تتدلى عليه الستائر المزركشة وتعزف أمامه فرقة من الموسيقى العسكرية وأخرى من أصحاب الزمر البلدي فتحتفي مكة باستقباله احتفالاً بهيجاً حتى إذا انتهى إلى باب المسجد طيف به عدة مرات في المسعى مما يلي باب علي ثم أنيخ الجمل ونقل المحمل إلى زاوية من زوايا المسجد ليبقى تحت رعاية حراسه إلى أن يحين موعد سفر الحجاج وكان أكثر الحجاج يتبركون به كأي شيء مزركش تعلموا الانتفاع من بركاته الموهومة.

وكان يحلو لي وبعض العيال من أمثالي أن نقلد المحمل فنعمد إلى بعض العصي نربطها من أحد طرفيها حتى تستقيم في شكل هرمي ثم نكسوه شالاً مزركشاً نستعيره من أحد بيوتنا ثم نحمله حتى نضعه على كثب من المحمل في المسجد ونحاول دعوة الحجاج ليتبركوا به لأنه محمل ابن فاطمة الزهراء الصغير.

فيصرخ بنا حارس المحمل ويستعدى علينا بعض خدم المسجد فيطردونا ولكننا لا نلبث أن نعاود الكرة فنعيد المحمل إلى مكانه ونستأنف دعوة الحجاج ليتبركوا بمحمل ابن فاطمة الزهراء فيصدقنا بعض السذّج ويضحك منا البعض الآخر ويزجرنا الأكثرون يساعدهم حارس المحمل.. ونظل على هذا حتى يتنبه خدم الحرم فيجلونا بقوة العصا.

كنت أحس شيئاً حاداً في كياني يثير أعصابي، ويدفعني إلى العمل.. عمل أي شيء فيه عبث أو (شقاوة!)، وأنا اليوم لا يعجزني تفسير ما كنت أحسه.. فقد تربيت على الكبت. فلما زال سلطان والدي؛ انفجرت بأقصى ما تنفجر به المواد. ولو عقل أبي –رحمه الله– عواقب الكبت لتركني أنفِّس عن شعوري في مجالَي اللعب بين الصبيان!! ولكن الحزم في معانيه الخاصة عند أبي كان يحرمني حقوقي في المرح، ويهيئني بعد الحرمان الطويل للانفجار!! فليت الآباء في كل زمان يقدرون أمثال هذه العواقب –إذن لاستغنت بلادنا عن عدد كبير من أشقيائنا ومجرمينا![11]

[11] – قلت (الجامع لمقالات الاستاذ السباعي) : تأمل واحفظ هذه الكلمات الرائعة ، رحم الله الأستاذ السباعي ، فقد أجاد وافاد .

(13) أدب وعلم

وتعشقت القراءة في هذه الفترة من حياتي، ووجدت فيها ملاذاً من همومي وأشجاني. ولكنني لم أعثر على ما أقرأ، وإذا عثرت في القليل على شيء فإني لا أجد من يوجهني إلى ما يحسن قراءته أو تركه، صادفتني في هذه الفترة قصص لحسن البصري، وأخرى لدليلة المحتالة، وغيرها عن تودد الجارية.. التي حذقت علوم الأولين، وذكاء الآخرين. كما صادفتني قصة للشاطر حسن الذي ساقته معشوقته من الجان إلى جزائر واق الواق، وفيها رأى وراء المعمور دنيا جديدة تثمر بعض أشجارها رؤوساً كأنها رؤوس الآدميين تنطق ألسنتها في أصوات عالية (واق الواق.. سبحان الملك الخلاق).

وكان لهذه القصص فضل استغراقي في أجوائها الواسعة، وخيالها المجنح، الذي كان يحملني بعيداً عن أشجاني كما كان لها الفضل في تنشيط ذهنيتي، وحملها على الانطلاق في آفاق لا نهاية لحدودها، ولا ضابط لمقاييسها.

ثم صادفتني قصص متسلسلة للملك ذي يزن، والظاهر بيبرس و (فتوح الشام). كما صادفتني علوم كونية خاطئة في (بدائع الزهور؛ وعجائب الدنيا، وغرائب البحار)، فنهلت من مياهها الآسنة! ما ينهله البدوي وقد ألح عليه العطش، وغصت في أخطائها إلى أعمق ما تصل إليه الأغوار البعيدة، وهيأت لنفسي منها معارف لا يدري إلا الله مقدار خديعتي بها ثم ما لبثت أن شرعت أصنف هذه المعارف وأبوّبها بقلمي في دفاتر لا تزيد عن حجم الكف ثم أسميها بأسماء مسجعة (نوادر الأخبار في صحيح الآثار) (علوم الأولين وتاريخ السابقين).

كنت إذا وجدت بحثاً في طبقات الأرض وأسمائها، وأنواع سكانها من الجن؛

أو البن، أو قرأت عن مسارب النيل من قباب قيل إنها على كثب من حدود الجنة!! أعجبتني هذه الترهات وراقتني طرافتها، وشجعتني على نقلها بالحرف الواحد في كتابي (نوادر الأخبار أو علوم الأولين) ثم لا أخجل إذا انتهيت من تغيير آخر صفحة فيه أن أكتب اسمي في مكان المؤلف من غلافه وأضيف في بعض الأحيان إلى الاسم بعض النعوت اللازمة.. كالعالم الفهامة أو الأستاذ الجليل.

وطال إدماني لهذه الكتب وكنت أعيد قراءة بعضها أكثر من خمس مرات إعجاباً بحوادثها، أو سروراً بسهولة أسلوبها الذي لا يرتفع كثيراً عن أسلوب التخاطب بين عامة الناس، أو مكرهاً لقلة ما أملك من الكتب.

(14)نقطة تحول

ودام عملي في الدكان إلى شهور كنت أشعر أثناءها أنني في حاجة إلى تجديد رأس المال كلما تقدمت بي الأيام، وكنت قد اطلعت في بعض ما أقرأ على نبذة طريفة يصف فيها أحد الأدباء جاراً له يحاول التجارة عبثاً فقال: (إنه لو تاجر في الزيت لمحا الله آية الليل).

وليس مجهولاً أنهم كانوا يستضيئون بالزيت فلم يستبعد الأديب الظريف أن يمحو الله آية الليل لو تاجر جاره الفاشل في زيت الاستصباح؛ ولا أنكر أنني كنت لا أتذكر هذه الطرفة حتى ينتابني الخوف من أن تأمر الحكومة بمنع تعاطي الشاي إكراماً لحظي العاثر في ما أتاجر، ولكن الحكومة كانت أعدل من أن تعلن مثل هذه الأوامر؛ ومع ذلك فقد أبى حظي إلا أن يعاكسني في إصرار، وأبت الصدف إلا أن تشاكسني إذا كان موضوع الحظ لا يزيد عن خرافة لا ظل للحقيقة فيها.

وأشرق دكاني في أحد الأيام بإشراقة زميل قديم رأى أن يزورني بعد تباعد طويل؛ وكان في زيارته ما يصح أن أسميه بنقطة التحول. فقد رأى وفاؤه أن ينقذني من حياة التبلبل التي أعيشها إلى حياة أخرى لا أقول إنها كانت سعيدة ولكني أقول إنها كانت خالصة من شوائب القلق رغم ما فيها من إقلال.

قال زميلي: ألست من حُفَّاظ القرآن فيما أذكر؟

قلت: وإنني من مجوِّديه، ودارسي أحوال الغنة، وأحكام المد فيه.

قال: وما رأيك إذا أضفناك إلى المدرسة التي ندرس فيها كمعلم للقرآن؟

فأطرقت رأسي في هيئة المفكر الذي لا يريد أن يجازف بترك تجارته الرابحة إلى الوظيفة قبل أن يقلب وجوه الرأي، ويزن الملابسات بأدق ما عرفت به موازين

الرأي. ثم اعتدلت وشرعت أطيل النظر إليه في تخابث، وأنا أكاد لفرط سروري أن أنهال على راحته لثماً وتقبيلاً ثم قلت:

ولكن ألا ترى أن من الغبن أن أطلِّق حريتي في تجارتي إلى قيود الوظيفة!! فما زال يقنعني بفساد ما توهمته من قيودها وهو يحسب أنه سيحبب لي ترك الدكان وما علم أنني لو حلمت بمن يعرض عليَّ التوظف لغالطت نفسي وانطلقت على أثر يقظتي من الحلم باحثاً عن شخصية من عرض عليَّ التوظف لأرجوه قبولي فيما حلمت به في منامي –ولكنه التخابث، والمجالدة في ضبط العواطف والتجمل بالمراءاة الزائفة.

وقبلتني المدرسة كعضو في هيئتها التعليمية، فبدأت أشعر بالفرق بين حياتي في الحارة والدكان، وبينها في وسط المعلمين الراقي، وبدأت أعاشر صنفاً من الناس له قيمته الأدبية، وله حظه من التهذيب إذا قيس (بالعيال) من أشقياء الحارة.

ولست أدعي أن دخائل هذا الصنف تنطوي على أفضل ما تنطوي عليه دخائل (العيال) في الحارة، ولكنها أخلاق شذبتها المعرفة، ولطفت من سورتها، أما في الحارة فقد ظلت على فطرتها قاسية بما في القسوة من رجولة ونضج وخطر، وما في الفطرة من طوايا سليمة وشعور أحمق.

على أن رفاقي من هذا الصنف المتعلم لم يكن تعليمه راقياً بالصورة المعروفة في الأوساط العالية، ولم يكن نضجه التربوي قد شارف شيئاً سامياً من الكمال.. فقد كنا، أو أكثرنا خريجي كتاتيب عالية أو مدارس لم تتعد الطور الابتدائي؛ وكنا إلى جانب ذلك فتياناً لم يطرّ شارب أكبرنا سناً، جمعتنا مديرية المعارف من زوايا متفرقة، لتزود مدارسها الجديدة بما تملك من محصول.. فكان على المدارس أن تعلمنا كيف نعلم أبناءها وأن تعرضنا للتجارب القاسية لتهيئ

منا، ومن تلامذتنا جيلاً يلم ببعض المعرفة، ويرود طريق النهضة العلمية الجديدة.

كنا نشتعل حماساً لمهامنا في المدرسة، وكانت اليقظة الجديدة في البلاد قد خالطت مشاعرنا، فأصبحنا نؤدي أعمالنا عن عقيدة وإيمان، وكنا إلى جانب هذا مسرورين بالسلطة المطلقة التي كانت تخولها لنا أوضاع المجتمع في تلك الأيام.. فالطفل في المدرسة خادم أستاذه المطيع، يتلقى أوامره في خشوع، ويمضي إلى مرضاته بنفس الروح الرضية التي كنا نمضي بها إلى الكتاتيب من قبل!

كان كرسي الأستاذية في الفصل خشبياً، ولكن التلاميذ يأبون إلا أن يجعلوه وثيراً فيفرشونه لي (بأحاريمهم) حراماً فوق الآخر حتى تزيد طبقات الأحاريم عن عشر، ثم يزينون ظهره (بأحاريم) أخرى، حتى يبدو كأنه منصة عرس، فكنت بذلك أرضي خيلائي كفتى لم يكمل نضجه.

وكنا نتمتع بصولتنا في الجلد!!، ونرضي غرورنا بانتقاء العصى المبرومة، ونشبع رغبتنا في القسوة على من نجلدهم كما يشبع الطغاة نهمهم في الفتك بضعاف رعاياهم.

وكانت لذتنا باجتماع هيئتنا التعليمية –كشلة– لا تعادلها لذة. فقد كانت سنوات أعمارنا متقاربة، وكان مستوى عقولنا المحدود لا تتفاوت درجاته كثيراً.

لم تكن لدينا دروس يتعين مراجعتها أو بحوث يجب إعدادها بل كانت تكفينا كتب التلاميذ المطبوعة لِنُكلِّفهم باستظهارها عن ظهر قلب ثم نفسر لهم ما أغلق من بعض معانيها.

كان الطالب يحفظ في كتابه نص السؤال وصيغة الجواب كما طبعتا وفي ذلك ما يضمن له النجاح عند أستاذه كما يضمن له التفوق في غرفة الاختبار.

لهذا كان كل همنا بعد أن نؤدي وظائفنا في الفصول بحماس وغيرة –على طريقتنا– وأن نتمتع بندواتنا واجتماعاتنا في مرح صارخ، وعبث صاخب، وأن نمضي ليالينا في سمر ضاحك، وسويعات فراغنا في هزل يليق بأترابنا في سن الفتوة المبكرة، وإن كان لا يتفق مع ما يجب لوقارنا كمدرسين.

وكان زميلنا (عبد الله خوجه) المعروف اليوم على رأس الحركة التعليمية الليلية أستاذاً لا ينازع في فن الضحك، وتدبير المقالب، وتمثيل الفكاهات التي لا يجيدها إلا الموهوبون.. فكانت أيامنا لذيذة بأفانينه الطريفة ونكاته الصاخبة.

كانت مواعيد دوامنا في المدرسة لا تحدها ساعات، فقد كنا نصرف تلاميذنا، لنبدأ ندواتنا لا في هدوء يليق بوظائفنا ولكن في ضجة صاخبة، وسباق في الجري والنط بين غرف المدرسة وإدارتها، وكان يحلو لنا في بعض الأمسيات أن نمتطي صهوات بعض الحمير الفارعة في موكب حاشد.. يبدأ خروجه من المدرسة في ضجة لا تليق بمدرسين، ثم ينتهي في وادي الزاهر أو (ريع الكحل).

وأكبر ظني أننا كنا معذورين.. فقد كان أكبرنا سناً لا يتجاوز سن الفتوة اللاعبة؛ وكان سرورنا بفرص اللعب بيننا وإصدار الأوامر على الأطفال؛ وجلدهم لا يقل عن سرورنا بمهامنا التعليمية في المدرسة.

وجاء يوم رأت مديرية المعارف وعلى رأسها فضيلة الشيخ عبد الله الزواوي وكيل المديرية أن تستغني عن رئيسنا في الإدارة وكان شيخاً وقوراً أرهقه نزقنا فاختارت أحدنا للإدارة.

كان زميلنا الشيخ عبد الوهاب خياط لا يكبرنا إلا بسنوات لا تكاد تذكر ولكن كان يمتاز بكثير من الهدوء الذي يرشحه لإدارة فتيان مثلنا استمرأوا النزق وقد استطاع أن ينجح ولكن إلى حد كان لا يكفي كل الكفاية لتأمين العمل في جو من الهدوء الذي كانت ترجوه مديرية المعارف.

كان يمتاز بوجه صارم لا يستخفه النزق الشائع بيننا وكان شاربه المفتول يرسم صورته أمامنا كشاب ناضج يستحق التوقير ولكننا مع هذا لم نتنازل كثيراً عن مباذلنا المضحكة حتى في مجتمعاتنا الرسمية به.

ومما أذكره إنني كنت شخصياً أحسد فيه هذا الشارب وأتمنى لو كان لي بعض شعراته لأبرمها كلما استدعى الحال أو أزفت أزمات الجد في مواجهة بعض التلاميذ المناكيد.

وكنت لا أخفي عليه حسدي حتى لأذكر أني جئته مرة لأقول ((شيخ عبد الوهاب أما اليوم نبتت لي شعرة واحدة فأسرعت أبرمها كما تفعل ولكن.. قطعت ويا للأسف!!)) .فما ملك أن ضحك حتى استلقى.

وكان الشيخ عبد الوهاب إلى جانب صرامته أنيساً يهوى فن الغناء ويجيد الطرب على العود وفي سبيل هذا كان ينسى صرامته في كثير من الأحيان ويتودد إلينا ليجمعنا إلى حفل أنيس في بيته يغنينا فيه أشهر (الطقاطيق) والأدوار المصرية التي كانت شائعة في عهدنا وتنتهي سهرتنا بمائدة حافلة كانت تكاليفها لا تصيب الفرد منا إلا بنحو ثلاثة قروش.

وإني لأذكر مرة وكنا منسجمين في إحدى ليالينا الساهرة في بيت الشيخ عبد الوهاب وإذا طارق يطرق الباب علينا وكانت حفلات الغناء محظورة في مكة بأمر الملك الحسين فأسرعنا نخفي آلات الطرب حتى إذا مرت ساعة ولن يعاودنا الطرق استأنفنا الغناء فعاد الطرق بصورة أشد فعنّ لي أن أسرع إلى أعلى البيت لأشرف على الطارق فما راعني إلا رجل مربوع القامة لا يكاد يطرق الباب حتى ينزوي في ركن خلفه فكان هذا إيذاناً لنا بإلغاء ما نحن فيه واستئناف جلستنا في أحاديث عامة.

ودلتنا القرائن فيما بعد على أن طارقنا الليلي كان شخص الحسين بن علي

فقد شاهده نقيب الحارة ليلتها يرود بعض الأزقة بجوار البيت الذي نسهر فيه وهي أزقة ربما خفيت على عفاريت الأرض لأنها تتفرع من دروب ضيقة كل الضيق في أعالي جبل الهندي وربما ضاعت مسالكها على أي عابر لا يسكنها لكثرة ملتوياتها.

وأكد لنا هوية طارقنا ليلتئذ أن مديرنا دُعي في صباح اليوم الثاني من سهرتنا لمقابلة الحسين في قصره، فلما مثل بين يديه قال له :((لقد نُميَ إليَّ أن بعضهم يحيي ليالي غناء في بيت بعض جيرتكم فهل لك أن تصدقني)) فلم يحاول الشيخ أن يلف أو يدور بل قالها كلمة صادقة– ((إنه بيتي.. وأنا الذي أحيي فيه بعض ليالي الغناء في نفر من أساتذة المدرسة بشكل بريء كل البراءة لا يشوبه حرام ولا يختلط به مشبوه)).

قنع الحسين بما قال وسرته نبرة الصدق وأخذ ينصحه ليقلع عن مثل هذا اللون :((يا ابني زيكم أساتذة.. لازم يسهروا في طلب العلم.. في المذاكرة.. في شيء ينفع.. مو في زي هادا الهلس.. أقول في شيء ينفع.. مو في زي هادا الهلس)).

وما كاد الشيخ عبد الوهاب يستأذن للخروج وينتهي إلى الباب حتى عاد فاستدعاه ليقول:

((يا ولدي انت باين راجل عاقل.. أحب أسلمك طلال.. ولد ولدي عبد الله.. حطه في المدرسة عندك خليه يختلط مع التلاميذ.. خليه يتعلم معاهم.. خذ بالك منه.. لا يلعب ربيه.. لا تميزه عنهم.. أقول ربيه لا تميزه عنهم لا تخليه يتمهمل)).

ووافانا في اليوم التالي طلال بن عبد الله (ملك الأردن السابق فيما بعد) فأفرد له فصل خاص في المدرسة ضم إليه نفراً من عقلاء الطلبة وشرع يواصل

دراسته ولكن الحسين نُميَ إليه أن المدرسة تغضي عن بعض أخطائه فعن له أن يفاجيء المدرسة بزيارته فكان من سوء حظ طلال أن رآه يشاكس بعض زملائه فصرخ يستدعي المدير حتى إذا حضر أمر بربط رجليه وأن يجلده المدير عدة جلدات ثم يهيب بالمدير :((تسمع من فين يا مدير أنا جبته هنا عشان تعرف ما في فرق بينه وبين غيره.. هنا كلهم سوا.. أقول كلهم سوا)).

ومن طرائف الحسين التي تسجل عن غرامه بالتجسس على أصحاب الأعمال الرسمية أنه زار مدرستنا مرة بصورة مفاجئة لا يتخيلها عقل.

كان الوقت باكورة صباح لم يحن فيه موعد الدوام الرسمي وكانت طلائع التلاميذ بدأت تتوافد إلى المدرسة وتتجمع في ساحتها الخارجية لأن باب المدرسة لا يفتح لهم إلا إذا أذن الوقت الرسمي.

في هذه الأثناء كان مدير المدرسة قد سبق غيره إلى المدرسة ففتح له الباب ليأخذ طريقه إلى غرفة الإدارة ثم يبدأ جولته بين الغرف والردهات على عادته كل يوم.

كان يعلم أن باب المدرسة مقفل وأنه ليس في البناية غيره ولهذا ذهل عندما طرق أذنه صوت خطوات ثقيلة تنزل الدرج من أعلى البناية فوق ترى هل في المدرسة من بات فيها من المعلمين أو غيرهم فقام ينزل درجها بعد أن أصبح.

ليس في هذا ما يصح فقد مر بالغرف والردهات منذ دقائق ولم يكن ثمة أحد فهل يسكن المدرسة عفريت أو شيطان؟؟

كل هذه أسئلة مرت بذهنه وهو ينصت إلى الخطوات الثقيلة تتابع نزولها في أناة وتؤدة ولاحت منه التفاتة أخيرة فإذا الملك حسين شاخص أمامه بجبته وعمامته وهيكله الذي ينكره وخطواته الثقيلة التي يتابع بها نزوله.

صعق بالمفاجأة وارتعدت مفاصله فهذا الشاخص أمامه لا يمكن أن يقال إنه

الحسين فالحسين لا يترك قصره ليبيت في المدرسة ثم لا يصح عقلاً أن يكون قد بادر إليها قبله لأن باب المدرسة مقفل لا يفتحه إلا البواب ولو فتحه البواب للحسين لأخبر المدير بما حدث.

أيكون هذا من عمار المدرسة إن كان للمدرسة عمار من العفاريت بدا له أن يتقمص شخصية الحسين ليعبث به أو بالمدرسة.

كانت أفكاراً مريعة ما لبث أن سمع في غمرتها صوت الشاخص أمامه يقول –أين مدير المدرسة، لماذا هذا اللعب، أين المدرسون، لماذا لم تبدأ الدراسة وقد أضحى الوقت.

لم يملك المدير حواسه في غمرة الاضطراب لهذا لم ينبس بشفة ولعله يفهم شيئاً مما يقال بدليل أنه ترك الشخص يتابع نزوله في الدرج دون أن يحرك ساكناً.

ومضت دقيقة سمع بعدها صوت باب المدرسة يفتح للشخص وسمع صوته يهيب بالبواب: هذا لعب هذا لعب أين مدير المدرسة أين المدرسون وارتهكت مفاصل المدير في مكانه فتهالك على نفسه حيث كان يقف وراح في شبه غيبوبة لم يتنبه منها حتى تعالى النهار وأقبل المدرسون ليجدوه ملقى بين الدرج.

وعندما تسامع الناس الخبر وتسنموا حقائقه ظهرت القصة تأخذ دورها المتطرف بالشكل الآتي.

نُمِيَ إلى الحسين أن موظفي البلدية لا يبادرون إلى أعمالهم من الصباح الباكر فأراد أن يمتحن الأمر بنفسه فركب إليها مبكراً ودار بين غرفها فلم يجد أحداً حتى إذا انتهى إلى سطحها رأى أن الجدار الفاصل بينها وبين المدرسة قصير ورأى إلى جانبه سلماً خشبياً فتراءى له أن يصعد السلم لينزل منه إلى سطح المدرسة وكان ما فعل فقد هبط إلى السطح وشرع ينزل درجات المدرسة على

أمل أن يتحرى سير العمل فيها ونسي أو تناسى أن وقت الدوام لم يحن في المدرسة كما كان الأمر في شأن البلدية.. وهكذا رأيناه يفاجىء المدير بالصورة المهيبة التي فاجأه بها ولا يغادر المدرسة حتى يترك صدى صوته يملأ فراغها وفراغ بناء البلدية بجلجلة رهيبة جعلت الموظفين في البنايتين يحلمون بالبكور إلى أعمالهم قبل مواعيدها بأوقات غير قصيرة وهو لون المغالاة يبدو في رأيي إنه كان يكلف الأيام أكثر من طباعها.

(15) كرسي الأستاذية

توالت السنون بنا ونحن مأخوذون بمراكزنا التي كانت تتيح لنا ونحن في سن مبكرة أن نتحكم في مصائر مئات الأطفال (نشخط وننخط) ونتقاضى مع ذلك مرتبات شهرية محترمة إذا قيست قيمتها بمعدل نقدنا اليوم فهي تضاهي نحو عشرين ريالاً.

توالت السنون تمر بنا في ريح لم تكن هادئة كل الهدوء وكيف لها أن تهدأ وبين جدران المدرسة أشياخ لا يتميز بعضهم عن التلاميذ إلا بأجسامهم وأجسامهم فقط.

ومما أذكره أننا كنا يوماً في رمضان وكانت حصص الدراسة في برنامج رمضان تنتهي بأذان الظهر ينصرف التلاميذ على أثرها ولا ننصرف بانصرافهم؛ لأن المدرسة بردهاتها وفصولها الخالية مجال واسع للجري والنط واللعب بالماء نغرق به ثيابنا وأجسامنا ولا يهمنا في نشوة الجري أن يصيب أثاث المدرسة ما يصيبه من أذى.

كان مديرنا لا يشاركنا إلا في قليل من هذا العبث وربما وقف هو وآخر معه على كثب منا يضحكون لمرحنا في تعقل وربما وقف بعيداً منا يستعدي بعضنا على بعض مأخوذاً بنشوة لعبنا.

ولكنه ما عتم أن ضاق بنا وشعر أن مركزه الرسمي لا يبيح له أن يتضاءل فشخط ونخط على أمل أن يحفظ لنفسه ومدرسته بعض هيبتهما.. ولكن هيهات فليس في البيداء (خوّاف) وليس بينهم عاقل.

وحلت عطلة العيد في أخريات رمضان فكان من حق المدرسة بنايتها وصالاتها وغرفها أن تهدأ بانصرافنا عنها.. ولكننا لم ننصرف وأنى لنا أن ننصرف ونحن لا نملك متسعاً يجمعنا للعبث والجري غير بناية المدرسة.

كانت فرحة اتسع الوقت فيها فاشتط العبث واشتط رغم أننا صائمون وليس بيننا من تحدثه نفسه بالإفطار فاستأنف المدير شخطه في غير جدوى.. فأصدر أمره رسمياً بأن نغادر المدرسة إلى نهاية العطلة فلم نسمع، فاستصدر من وكيل المعارف أمراً بذلك فلم يسعنا إلا أن نمتثل كارهين وأن نغادر المدرسة آسفين.

ونُميَ إلينا أن مديرنا يختلف بعدنا إلى المدرسة ويتمتع بهدوئها وحده لا يشاركه أحد فعز علينا أن يطردنا ويستقل بها بعدنا.

قال قائلهم: من يبايعني على الثأر (والقائل هو شخصي بالطبع) فانفرد من الصف صديق الملمات ورفيق العزمات إذا اشتدت (الوكبات) عبد الله خوجه وهو يقول: أنا لها!!

وتساءل القوم عن ماهية الثأر وكيف يكون؟ قلت: نُحكم إغلاق باب المدرسة بالمسامير فنحرم المدير من غشيانها كما حرمنا فاستصوب أخو الملمات ما رأيت ومشى يتقدمني إلى العمل.

لم يستعص باب المدرسة علينا فقد كان قفله (شاشاليف) ولكن المسامير كيف نحكمها دون طرق يسمعه (الحادي والمنادي) يا أخا الملمات؟!

وهنا طرأت فكرة: نحن نخزن في أعلى المدرسة بضعة عشر عوداً نستعملها للرايات في أيام الزينة والأعياد.. هيا بنا نحملها إلى الباب.. ونرى!!

ولو اطلعت علينا ونحن نختلس خطانا في درج المدرسة متلصصين متنقلين بالأعواد لهالك أن يكون للمدرسة أساتذة من هذا الطراز ولملئت منهم رعباً.

ركزنا جميع الأعواد خلف الباب دون أن نشدها إليه ثم أفرجنا منه ما يكفي لخروجنا وعدنا نشده في قوة حتى ثبتت خلفه الأعواد بشكل لا يدع مجالاً لحركته.

ولكن المدير كان أذكى بكثير مما ظننا فإنه عندما عاد إلى المدرسة وعندما حاول فتح الباب بكل قوته فاستعصى عليه نظر من فجوة القفل أو من خصاص الباب فشهد الأعواد المركوزة خلفه تمنعه من الحركة ففهم (القولة).

استدعى نفراً من موظفي البلدية جيران المدرسة ليطلعوا على ما رأى ويوقعوا على محضر بواقع الحال ثم رجا إلى بعضهم أن يتسلق (بلكونة) البلدية إلى المدرسة ويزيح الأعواد عن الباب ففعل وبذلك أحبط كيد المبطلين.

واللذيذ في الأمر أنه رفع يشكو أمره إلى وكيل المعارف مرفقاً به محضر الحال وكان وكيل المعارف ويمتاز بطيبة متناهية إلى سماحة يقل نظيرها وكان إلى جانب هذا يعرف أن مديرنا ممتحن بطائفة لا يزكى عقلها وإن كان يحمد لها دأبها في العمل ونشاطها، وأن على المدير أن يروضها في غير عنف لئلا يحرم نشاطها (روح يا ولدي الله يهديهم.. وسنشوف).

ولقد شاف فضيلته الموضوع لأني عندما بادرت قبل إخواني في أيام العيد للسلام عليه في بيته قص عليّ الأمر كما لو كنت أجنبياً عن القصة وتسمعت إليه في عناية وأدب كما لو كنت غريباً عنها.. ورأيتني في نهايتها أطلب إليه أن يتفضل فيكل أمر التحقيق إليّ في صورة سرية.

((أنا أجرُّ لسانهم إذا أمرتم ثم أسر به إليكم)).

(روح يا ولدي.. ربنا يساعدك.. ويهديك) وطلب الهداية هنا كان يجب أن يتسع لأكثر من معنى.. ربما كان من معانيه إني مشبوه بالنسبة إلى القصة فلا يجب أن تنطق ملامح وجهي بأية حركة تؤيد الشبهة.

وانطلقت إلى إخواني أعلنهم أني ندبت جاسوساً للقضية فضحكت وضحكوا.

ولم تنته أيام العيد حتى ساد الصفاء بيننا وبين مديرنا، فقد كان حضرته يتمتع

إلى هدوئه بكثير من رقة المشاعر، وكان إلى جانب غرامه بمجالس الغناء والطرب لا تلذ له هذه المجالس إلا إذا حفلت بالمناكيد من زملائه في المدرسة، فما عتم أن ندب لنا من يستحصل خمسة قروش عن كل رأس منا– ((وتعالوا عندنا قيلة وطرب بعد بكره)) وهكذا ذابت القضية وذاب الخصام بين رنات العود وأطباق الشواء ومزاح (المجغين).

وتراءى لي أن أجس نبض القضية في دار فضيلة الشيخ وكيل المعارف خشية أن تأخذ طريقها الرسمي في إدارة المعارف فاستقبلني فضيلته في سن ضاحك((ها ايش سويت)).

قلت: جئت اليوم ألتمس الفتوى في موضوع فقهي، وكان رحمه الله لا يبسط أساريره شيء مثلما يبسطها البحث الفقهي وتتفتح نفسه بشكل لذيذ إذا تفتق البحث للنقاش وتوالت عليه الاعتراضات.

وكنت قد هيأت نفسي بما يكفل انبساط أساريره حتى إذا تم لي ما أردت قلت: هل أبشر الشيخ؟؟

قال: خيراً إن شاء الله؟؟

قلت: تصالح المدير وجماعته وكانوا من يومين (مقيلين) في بيته.

قال: لا بدها قيلة طرب؟؟

قلت: لا يخلوا الأمر من قصائد وأناشيد اقتضتها فرحة العيد.. ولكن الذي يهم المدير ويهم إخوانه ألا تكونوا زعلانين وأن يشمل العفو أوراق الشكوى.

قال: إنها لا تزال في مكانها تحت (المقعدة) هناك.. فهاتها من أقصى يسار المقعدة.

وكنت أسرع من إشارته إليها فقال مزقها وقل لإخوانك: ترى لا أسمع بعد اليوم شيئاً من هذا.. رحم الله تلك النفوس السمحة وأغدق عليها من فيضه ما

يتكافأ وطيبتها.

وكنا مغرمين بإقامة الحفلات العامة لنشبع فيها –من حيث لا ندري– رغبة أعصابنا إلى الحركة.. فكنا لا نترك مناسبة دون أن نحييها باحتفال عام ندعو فيه أعيان الدولة ورجالات البلاد وعلى رأسهم جلالة الملك الحسين ثم نتعاقب ونجباء تلامذتنا على المنبر في كلمات إنشائية كان الحسين رحمه الله يحتفي بها؛ رغم قلة انسجامها وركاكتها..

وكان رجال المعارف لا يرضيهم تبذلنا دون بقية المدارس التابعة لها في إقامة الحفلات؛ وتهجمنا على مقام الملك في دعوته إلى مثل هذه الحفلات عن غير طريقها ولكنها لا تملك حق الاستنكار؛ لأننا كنا لا نقرر مشروع حفلة حتى نسرع إلى قصر الحسين؛ ونرتبط بوعده لحضورها. فلا تكاد إدارة المعارف تشعر بعزمنا حتى تكون قد علمت بأن الحسين قد أجاب دعوتنا فلا سبيل إلى العدول عما تقرر!!

ومن أطرف ما أتذكره من نوادر هذه الحفلات أن السلطان وحيد الدين العثماني –وكان ضيفاً عند الحسين– شرَّف حفلتنا في إحدى المرات بصحبة الحسين؛ وكنت قد أعددت كلمة عن ماضي الحجاز وحاضره؛ وإذا أردت تدقيق العبارة فالواقع أني حبّرت الكلمة على غرار الإنشاء المدرسي؛ وكنا نستفتح كلماتنا بعبارات لها نسقها الخاص من قبيل (من فكر وحقق؛ ونشر ودقق؛ واستطلع الكتب وأسفارها: والتواريخ وأوراقها؛ وجد كذا وكذا، وعلى كذا؛ وكذا).

وكان لا بد (لخطابي) أو إنشائي في هذه المرة أن يتعرّض لسيئات الأتراك في ماضي الحجاز على قاعدة النفاق الاجتماعي العام في مثل هذه المواقف الخطابية؛ وأن يذكر فضل الحسين في إنقاذ البلاد من براثينهم فلم يتسع إدراكي

لمراعاة شعور الضيف العثماني الذي كان يجب ألا يسمع كلمة تسيء إلى عثمانيته؛ ومضيت أستهل خطابي بما لا يليق بالمقام ففطن الملك لبلادة شعوري؛ وأراد أن يستدرك الموقف فأهاب بي:

(هاتوا شيئاً من اتحادكم.. عن تآلفكم).

فلم أفهم كثيراً مما يقول وأنّى لي أن أفهم وقد انحصرت مشاعري فيما بين عيني من أوراق مسطورة؛ وأنّى لي أن أعطيه شيئاً عن الاتحاد وأنا لا أجيد الكلام إلا فيما أسهر على تحبيره وتطريز أوراقه.

وعز عليّ في الموقف أن أغادره فاشلاً؛ فتوقفت لحظة استجمعت فيها أنفاسي، ثم استأنفت الكلام في أوراقي نفسها.. فاستوقفني مرة ثانية؛ ثم ثالثة.. وعندما رأى جمود إحساسي صاح بي (كفى.. كفى) فغادرت الموقف في (أروع) ما يغادره (كسيف).

ودام اشتغالي في المدارس أعواماً في عهد حكومة الأشراف ثم في عهد حكومتنا الحاضرة؛ وقد علمني التدريس؛ وعلمني طول التجارب؛ وعلمتني قسوة الأيام ما لم يتيسر تعليمه عند أمهر الأساتذة؛ وأكفأ المعلمين.

ولازمني شغف القراءة وحب التدريس.. فقرأت قصص أبي زيد الهلالي، وعشرات أمثالها مما لا يختلف كثيراً عن أسلوب العوام، ثم تقدمت قراءتي فدرست سيرة ابن هشام، وتاريخ ابن الأثير.. فشعرت أنني أتلذذ بأسلوب أرقى مما كنت أقرأ وأحسست أنني أمازج المؤمنين فيما يكتبون، وأسايرهم فيما يعجبني من آراء، وأحنق عليهم فيما لا يعجبني، وأناقشهم في كل ما يحتمل المناقشة والجدل.

واجتمعت مصادفة بالشيخ محمود ملياني فجاء ذكر المؤلفات والمؤلفين، وسألني عن الأدب الحديث ورجال القلم فيه. فلم أحر جواباً، لأن مبلغ معرفتي

بمعاني الأدب هو تهذيب الطبع. أما الأدب كدراسة في علوم اللغة، فذلك معنى لم يصادفني بعد. فليس لي أن أفهمه. وكنا نسميه إنشاء كما علمتنا المدرسة.

ولم يفارقني الشيخ الملياني حتى كنت قد ألممت بالمعنى الجديد لكلمة الأدب، دون أن يشعر بجهلي، وكان قد وعدني بأن يبعث لي كتاباً أدبياً فرغ منه بالأمس، وأعجب بأسلوبه الجذاب.

وتناولت الكتاب فإذا هو ((الريحانيات)) للأستاذ أمين الريحاني، فشرعت في قراءته في دهشة الرائد الذي امتطى أول طيارة تمر به عباب الهواء، وتسلك به سبيلاً ليس فيه مكان لما تعودت قدماه على الأرض.

شاقني هذا النوع من الكتابة؛ وراقتني فيه عذوبة الألفاظ وطرافة الخيال، وتمنيت لو أجد من أمثال هذه المطالعات.. ما يملأ أوقاتي جمالاً.

وعثرت بعد أيام على (حديث القمر) للأستاذ الرافعي.. فلذَّت لي مناجاته الرائعة، وترك أسلوبه الأخّاذ في نفسي أثراً. فرحت أنسج على منواله تقليداً ومحاكاة وأضيف إلى دفاتري صفحات من لون جديد.

وقرأت بعدها عدة مؤلفات لجبران خليل جبران.. فاستطاع أن يستحوذ على مقدراتي في الحياة، وأن يترك أثره في توجيهي، ويعلمني كثيراً من شذوذه على القواعد العامة، وما تعارف الناس عليه من أوضاع واصطلاحات، وصاغني صياغة عاتية لا تقر المبادىء التي لا يقرها عقل، أو منطق. ولا أنكر ما حييت أن شكيمة جبران وقوته فيما يكتب أزاحت عن نفسي أرتالاً ورثتها من بيئتي في البيت؛ والكُتّاب والشارع؛ وفتحت عيني على كثير من حقائق ما تلقيته من (ستي!!)؛ وحلَّت غير قليل من العقد التي كانت تنتاب نفسيتي؛ وأعدتني لتربية جديدة لا تمت بصلة إلى كل ما صادف حياتي الماضية.

فليت أصحاب الأقلام يدركون في كل وقت مبلغ ما تتركه نفثاتهم الحية في تنشئة الأجيال؛ وليت المرتزقة منهم يخشون الله في ما تدبجه أقلامهم؛ ولا يسيئون بمينهم (كذبهم)؛ وما يزيفون إلى مقدرات بلادهم في أشخاص من يوجهون من جمهرة قرائهم.

(16)في صحيفة صوت الحجاز

قلت أن لأدباء الرعيل الأول أن يقبلوا درجي بين أسمائهم بعد أن حاولت التأليف بشهادة الشيخ محمد سرور وبعد أن حاولت نشر بعض إنتاجي رغم ما لاقيت من إعراض بادىء ذي بدء.

وأضيف هنا أنه كان لسني كبير دخل فيما يبدو فقد أدركتني (هلوسة) الأدب في سن متأخرة فبدأ الأدباء يقرأون لكاتب جديد لا يجمعهم به جامع ولم يسبق أن عرفوه إلا من اسمه في ذيل ما جدَّ عليهم من كتاباته.

ومضت أيام عرفت في أثنائها الأستاذ فؤاد شاكر فرشحني للعمل كمحرر في جريدة صوت الحجاز تحت إدارة الشيخ محمد صالح نصيف فكان له فضل المعلم في كثير مما أكتب..

كان لا يجيد صناعة الحرف ولكنه كان ثاقب الذهن يمر بما أكتب مرور الحاذق الذي يعرف كيف ينصرف الحرف.

وعندما انتقل امتياز الجريدة إلى الشركة العربية للطبع والنشر برئاسة الشيخ محمد سرور الصبان طلبني لأنضم إليه كمدير لأعمالها بعد أن اختار لتحريرها الأساتذة عبد الوهاب آشي ومحمد حسن فقي وحسن عواد فكنا يداً واحدة أشاركهم في أعمال التحرير ويساعدني بعضهم في بعض أعمال الإدارة.

كان راتبي في هذه الأثناء لا يتجاوز خمسين ريالاً وكان لكل منهم مكافأة يتقاضاها شهرياً لا تزيد عن ثلاثين ريالاً.

وزيد راتبي على مر الأيام أو السنين إن شئت فأصبحت أتقاضى تسعين ريالاً شهرياً لقاء عملي كمدير لشركة الطبع والنشر ومدير للجريدة ورئيس مسؤول عن تحريرها ومدير لمطبعتها.

كان راتباً يستحق الحسد في نظر الكثير رغم أن أعمالي كانت شاقة

ومرهقة..

وإذا أضفت إلى هذا أعمالي الفخرية يومها في سكرتاريات الدفاع عن فلسطين والإسعاف ولجنة تنظيم مكتبة الحرم ولجان غيرها نسيت أسماءها علمت مبلغ ما كنت أعانيه من نصب.

كانت الصحافة يومها جديدة في بلد جديد لم يألفها وكان يزاولها من أمثالي شباب جديد ما عركته الحياة وكان يشرف علينا معلمون جدد حذقوا أبواب الفقه ودرسوا علوم البلاغة وأمعنوا طويلاً في دواوين الشعر دون أن تمر بهم أساليب الصحافة.

أما نحن فلم تكن مقومات الصحافة عندنا خبراً وصورة بقدر ما نراها وسيلة لعلاج آرائنا الاجتماعية في الحياة.

وكنت أجد المتحمسين لقضايانا الاجتماعية أتمنى لو استطعت أن أفرغ كل ما يدور في رأسي من أفكار شابة وأن أذيبها حروفاً مقروءة في مقالي الرئيسي ولكن البيئة لا تميل لمثل هذا الشطط فقد عاشت محافظة بكل ما في هذا من معنى وهي تأبى عليك إلا أن تعيش رزيناً وأن تخنق في نفسك صورة الشباب لئلا تزحف على ما ألفت أو تهاجم ما ورثت.

كان يصرخ بي الصارخ وأنا أمشي في عرض الطريق على أثر كلمة نشرتها أنقد فيها بعض تقاليدنا– ((يا جماعة فضحتونا الله يفضحكم.. احنا ناس عشنا مستورين.. الناس تقدرنا وتقدر بلدنا والحجاج يقدسونا حتى جيتونا بفضايحكم يا شباب.. عسى النار تشب فيكم ونستريح منكم!!)).

فإذا قلت أن الناس تقدرنا أكثر إذا كنا صريحين مع أنفسنا وإننا لا نتقدم في سلم الحياة إلا إذا تكاشفنا بما نحس من أدوائنا فسوف لا تسمع ما يقنعك أو يرضيك..

كتب إليّ مرة من يقول :((يجب ألاّ تنشر شيئاً من أخبار غير المسلمين وإلا فامنع الجريدة عني واحذف اسمي كمشترك فيها)).

وكتبت مرة أنتقد بعض تصرفاتي كمطوِّف فثارت ثائرة نفر من المطوفين وهددوني بالضرب أو أقلع عن مثل هذا فألجأني التهديد إلى اختراع قصة خرافية تعالج بعض شؤون المطوِّفين في أسلوب رمزي.

ادعيت أن أحد شيوخ الجن زار بلادنا كحاج ولما عاد نشر عن مشاهداته فصولاً مطولة في صحيفة كان يصدرها جماعة من بنات الجن يسكنون الربع الخالي وإني أهديت إلى بعض هذه الصحف فأنا أترجم بعض ما جاء فيها..

وبعد أن نشرت عدة حلقات غضب بعض المهيمنين على الصحيفة وجاء من يمنعني عن نشر بقية المسلسل لأن محررها لا يعرف لغة الجن فهو يتخيل خيالات كاذبة ولا يصح لمثله أن يوافق على نشر الكذب.

وكنت متحمساً لتعليم الفتاة بشكل حاد فأنشأت أكتب في إسهاب محبذاً تعليمها بشكل أثار عليّ حفيظة الكثير وعرضني للنقد اللاذع فرأيتني أتحايل على الفكرة.

شرعت أكتب بتوقيع (فتاة) فصولاً متسلسلة جعلت الفتاة فيها تصف نشأتها التعليمية وما نالها من عناية أبيها وأخيها حتى تذوقت معنى الحياة وبدأت تنمو بأفكارها إلى مستويات باتت محسودة عليها.

كتبت هذا في بحوث مستفيضة، فلم ألبث أن وافاني تعليق لفتاة لها شخصيتها المعروفة بين بيوتات مكة فتركت المجال يتسع بينها وبين الشخصية الخيالية حتى طال. وحتى ظن القراء إنه نقاش جاد بين شخصيتين لا يشك مرتاب في جهودهما.

وزارني في أحد الأيام عين من أعيان مكة يسألني أن أصارحه بأسماء الفتاتين.

قلت ولكن النظام لا يبيحني هذا. قال ولكني أنوي خيراً، فأنا قادم على زواج ويسرني أن أجد الفتاة المتعلمة التي تسعدني.

قلت أما والأمر ما ذكرت. فثق أني لسوء حظك أحد الفتاتين!! أما الثانية فهي من بيت فلان!!

فلم يملك أن سمع اسم هذا الفلان حتى أسرع يطلب يد المصونة وهي اليوم والدة لخمسة من شبابنا أشرفت على تنشئتهم إشرافاً لا تحسنه أم جاهلة.

وكانت جريدة صوت الحجاز تصدر في بعض المناسبات أعداداً ممتازة. فحدث مرة أن أصدرت بمناسبة عيد الفطر عدداً ممتازاً.

وتوزع العدد ليلة العيد.. وبينما أنا في طريقي لبعض حاجاتي في السوق – وكانت نسخ العدد الممتاز قد غمرت السوق– إذ طرق سمعي تعليق صحفي صادر من دكانة كنت واقفاً إلى جانبها.

والتفت، فإذا المعلق (فقي كتاب) يقع كتَّابه إلى غير بعيد من بيتي، وكنت آخر من يتوقع أن يقرأ مثله جريدة ما أو يهمه ما فيها فضلاً عن أن يعلق على ما تنشره.

ولذّ لي أن أتطفل على بعض تعليقاته من حيث لا يشعر لعلي أغير ولو بعض رأيي فيما كنت أتوقع منه، فاقتربت من موقفه ورحت أرهف أذني لتعليقه فإذا هو يقول :((في أخبار اليوم من جريدة صوت الحجاز، إن الدولة العثملية (كذا) أسست حكومتها من جديد في أفريقيا بعد أن وصل إليها أحد أولاد الخلفاء القدماء وتولى فيها عرش الخلافة)).

هالني الأمر واشتدت غرابتي لخبر كهذا ينشر في جريدتي دون أن أطلع عليه فرأيتني في غير وعي ألتفت إليه لأسأله متى وفي أي صفحة نشر هذا الخبر؟

فما زاد على أن أولاني نصف وجهه وهو يقول :((لو كنتم تقرأون الجرائد لما

فاتكم أخبارها)).

قلت: لقد قرأت جريدة اليوم ولكن ربما فاتني هذا الخبر فهل تتفضل فتطلعني عليه إذا كانت لديك صحيفة أو نشتريها من أحد الباعة؟

قال وقد التفت يواجهني في صدر مرفوع :((حتى إذا قرأتم فأنتم لا تفهمون!!)).

قلت –وقد لذ لي كبرياؤه :((إذا كنت لا أفهم ما أقرأ فما على مثلك وقد أفهمه الله إلا أن يتولى إفهامي))؟

اطمأن لتواضعي فعمد إلى سجادة كان يتأبطها ليخرج منها نسخة العدد الممتاز وكانت مطوية بعناية لا مزيد عليها وراح يقلب صفحاتها حتى وضع يده على الخبر المزعوم وأشار بيده يأمرني أن أقرأ.

نظرت فإذا الخبر كتبته يدي نقلاً عن صحيفة خارجية وقد جاء كما يأتي:

((في بعض الأخبار أن لؤلؤة من ممتلكات الخليفة العثماني عرضت للبيع في أسمرة بالمزاد العلني وقد تغالى في شرائها بعض التجار من أفريقيا الوسطى لتتبوأ عرشها في بلاده)).

إلى هنا انتهى الخبر، فاستطعت أن أفهم أنه قرأ خبر لؤلؤة ستتبوأ عرشها عند تاجر أفريقي فاستنتج أن ثمة خلافة (عثمانية) ستنشأ في أفريقيا ولا أكثر..

فهل لمثلي أن يبدد خياله فيما فهم وأن يجرح كبرياءه فيما استنتج.

قال لي وقد انتفخت أوداجه بتأثير ما حاز من نصر)) :ايش بك.. ليش ما تقرأ؟.. اقرأ وسمعني!!)).

تراءى لي في هذه اللحظة أن أتخابث.. فبعض المفارقات ترشح للنكتة الضاحكة في أحلى ألوانها..

بدأت أقرأ الخبر على مسمع منه في لعثمة من لا يحسن قراءة الحرف.. كنت

أعجن حروف الكلمة في بعضها فترتبك وتضطرب ولا يستقيم لها معنى أو بعض معنى.

قال وهو يشرع يده في وجهي ليؤكد معنى ما يقول :((هذا طولك وهادا عرضك وأنت ما تعرف تقرأ)).

قلت: وقد راقني أن أمضي فيما تخابثت :((أبويا ما علمني القراءة)).

وبدا من سحنته المكفهرة أنه لم يسبق له معرفتي رغم أن كتَّابه لا يبعد عن طريقي وأنا أمر إلى بيتي ذاهباً أو عائداً كما بدا أنه مستاء لهذا الفدم الذي لا يحسن قراءة الحرف فالتفت في لهفة يسألني ألديّ مانع أن أنضم إلى كتابه وهو ضمين بأن يعلمني القراءة في أقصر وقت وراح يحاضرني ليقنعني بأنه لا يليق (بشحط) مثلي أن يعيش في مثل هذا الجهل الفاضح ويؤكد لي أن من العيب أن أستعين بمن يقرأ لي الجريدة أو أي جواب يصلني من أحد معارفي أو تضطرب حروف ما أقرأ بهذا الشكل المزري.

ولذت لي نكتة الموقف فأسرعت بالإيجاب ولم نفترق حتى عين لي الساعة التي يجب أن أحضر فيها إلى كتابه ليبدأ تعليمي القراءة.

وما حان الموعد المضروب حتى كنت على باب الكتَّاب. ونظرت فإذا غرفة صغيرة تضم نحو خمسة أطفال لا يتجاوز أكبرهم سن التاسعة، وإذا كل طفل يحتضن لوحه الخشبي وهو يلوح به ليهدد أخوته وإذا أصوات تتعالى في جلبة تصك الأذن.. بينما اضطجع فقيهنا في ركن من الغرفة يتوسد بضعة ألواح من نوع ما رأيت في يد الأطفال وراح في غفوة عميقة دون أن تؤرقه الجلبة الصاخبة أو تطرد عنه النوم.

وعندما طال وقوفي تطوع طفل فأيقظه بعد لأي فقام يفرك عينيه ويتطلع إلى (الشحط) الشاخص أمامه.

–أهلاً أخينا.. لقد كنت أحلم بك وأنت تقرأ أمامي.. بشارة خير إن شاء الله.. بكره تقرأ أحسن قراءة على يدي.. قول إن شاء الله.

–إن شاء الله.

–هات يا واد يا سعيد اللوح حقك وريني.. وأسرع الواد سعيد بلوح فناوله لفقيهنا فأمرني بالجلوس ثم أمرني بالزحف حتى اصطكت ركبتاه بركبتي وشرع يلقنني لأتابع ما يقول:

–أليف، أليف.

–باء، باء.

–تاء، تاء.

–ثاء، ثاء.

وحسبني بعد أن تابعته في قراءة الحروف الأربعة أكثر من مرة أنني لا أعجز عن قراءتها معتمداً على نفسي فجعل يشير بأصبعه إلى موضع الألف ويسألني فأنطقها (جيم)..

–جيم ايه أخينا.. احنا وصلنا الجيم.. هادي أليف.

ثم يشير إلى الباء ويسألني فأنطقها (صاد).

–مين قال لك صاد ومتى وصلنا الصاد؟

ثم يشير إلى الباء ويسألني فأنطقها (قاف).

–انت يا أخينا راجل بليد.. لا بدك علشان كده ما تعلمت..!

ثم يعيد من جديد قراءة الحروف الأربعة وأنا أتابعه حرفاً حرفاً فأقرأ قراءة صحيحة.

ثم لا يكاد يتركني لأعتمد على نفسي في القراءة حتى يعاودني الارتباك.. فإذا الألف أقرأها صاداً أو لاماً.. وإذا الباء أختار لها أي اسم إلا اسم الباء.

وتكررت المحاولة عشرات المرات فلازمتني البلادة بشكل مثير حتى كاد التمثيل ينسيني أسماء الحروف نسياناً كاملاً.

استشاط الفقيه غيظاً ورأيت يده تتجسس بحكم العادة موضع الخيزرانة خلفه ولكنه ما كاد يفعل حتى بدا وكأنه قد تذكر أن تلميذه اليوم لا سبيل إلى تأديبه بالعصا.

وتفاقم غيظه فتوترت أعصابه وامتدت يده في عنف إلى اللوح الذي كنت لا أزال أتعثر في قراءة حروفه فشده إليه وهو يهيب بي :((قم من فضلك شوف لك فقي غيري يقرّيك!)).

(17)حروف. . ونقط

*لا تستنكر ترددي في مواطن الإقدام. فقد علمتني أمي الخوف من العفاريت والأشباح؛ وحدثتني ستي (جدتي) طويلاً في شؤون (البعبع)؛ (والدجيرة)؛ (وهول الليل) فطبعتاني على التردد؛ وهيأتاني للخوف في جميع مواطن الإقدام.

*إذا رأيتني عنيداً في بعض مواقفي.. فلا تستكثر هذا على إنسان نشأ في بيئة تدلله؛ ولا تجرؤ على معارضته فيما يفيد؛ ولا يسرها شيء ما يسرها إرضاؤه.. بكافة وسائل التدليل الفاشلة.

*لعلك تضحك كثيراً إذا علمت أنني أميل إلى ألوان من التخريف رغم كراهتي للخرافة؛ والمخرفين.. ولكن ضحكك سيزول إذا علمت أنني ورثت سائر أنواع التخريف الشائعة في محيطي من عشرات الأجيال؛ وأن ما ورثته تغلغل في مجاري الدم من عروقي.. وأن نقاوة الدم من هذا التلويث لا يكفيه إلا تطهير مستمر؛ ولا يستفيد منه إلا أحفادي بعد أجيال وأجيال.

*عندها هرعت إلى ستي (جدتي) في بعض المرات خوفاً من كلب كان يطاردني؛ قالت: لا تخف فإن الكلاب لا ترقى الدرج.

وقد انطبعت هذه الفكرة في أعمق أعماقي ما ينطبع فيه أمثالها وظللت إلى سنوات طويلة من عمري أعتقد عجز الكلاب عن ارتقاء الدرج!! فهل يكفي مثل هذا التدليل على تحري ما يجب أن نطبعه في أذهان أولادنا.

*عندما فرح أبي بإهلالي في بيته.. لم يترك وسيلة من وسائل التدليل حتى غمرني بها، وعندما شعر أن تدليله كاد يفسدني قلب ((الجبة)) وأذاقني من ويلات العصا ما لا يحتمله ناشيء ولو علم رحمه الله أنه أخطأ في الأولى؛ ولم يصب في الثانية.. لجنبني التدليل صغيراً؛ وعلمني كيف أحترم نفسي من هوان

العصا ومذلتها.

*لو أتيحت لنا دراسة أحوال الجناة لوجدنا أن 90% من الجناة، واللصوص؛ والقتلة.. يعانون أمراضاً نفسية انتقلت جراثيمها إليهم في بيوتهم من أم تجهل مبادىء التربية: وأب لا يعرف بناء الشخصية؛ ومحيط لا يقدّر الغرائز؛ ولا يؤمن بفضائل التوجيه.

*لا ينقصنا شيء كما ينقصنا توجيه الطفل في حياته الأولى.. الطفل العاصي؛ والطفل المغرور؛ والطفل الذليل؛ والطفل البغيض الذي لا يضمر الخير في الحياة.. كل هؤلاء ضحايا تناط آثامهم بكواهلنا؛ ونسأل أمام الله عن جميع ما يقترفون.

*إذا رأيتنا أنانيين لا نؤمن إلا بمنافعنا؛ وإذا رأيتنا عبيداً لا نطيع إلا من يسومنا؛ وإذا رأيتنا ظالمين لا ننصف إلا من نخشى أن ينالنا.. فثق أن تربيتنا كان ينقصها التوجيه العالي.

*سمعت إنساناً –تصدى للوعظ يُجدف على أهل الحياة ويصورهم فيها بأبشع ما يمثل التصوير فحملت ما رأيت على الغباء وجهل حقائق الوعظ!!

ثم ترددت عليه فرأيته يتربص بالناس؛ ويجاهد لأذاهم مؤولاً ما يقرأه في مسائل الدين؛ ليتسع لما يشعر من هوى نحو أذاهم فعلمت أن في أعماقه خفايا بعيدة الغور.

وصادفتني ظروف وصلتني بأوشاجه: وهيأت لي دراسته.. فاكتشفت في خفاياه ضميراً ينطوي على كراهية للناس وحقد عليهم.. فعلمت أن في نفسه مرضاً يستعصي على العلاج؛ وأن تحصيله في مسائل الدين لم يلامس روحه ليهذبها أو سجاياه ليطبعها على الرأفة والعطف وإيثار الناس بالمحبة والخير!![12]

[12] – قلت (الجامع لمقالات الاستاذ السباعي) : تمّ الكتاب بحمد الله تعالى ، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، ولا تنسونا من صالح دعائكم .

فهرس المحتويات